المشبهة والمجسمة

بقلم

العلامة المفسر المحدث الفقيه الشيخ عبد الرحمن خليفة

المولود سنة ١٢٩٤ والمتوفى سنة ١٣٦٤

رحمه الله تعالى

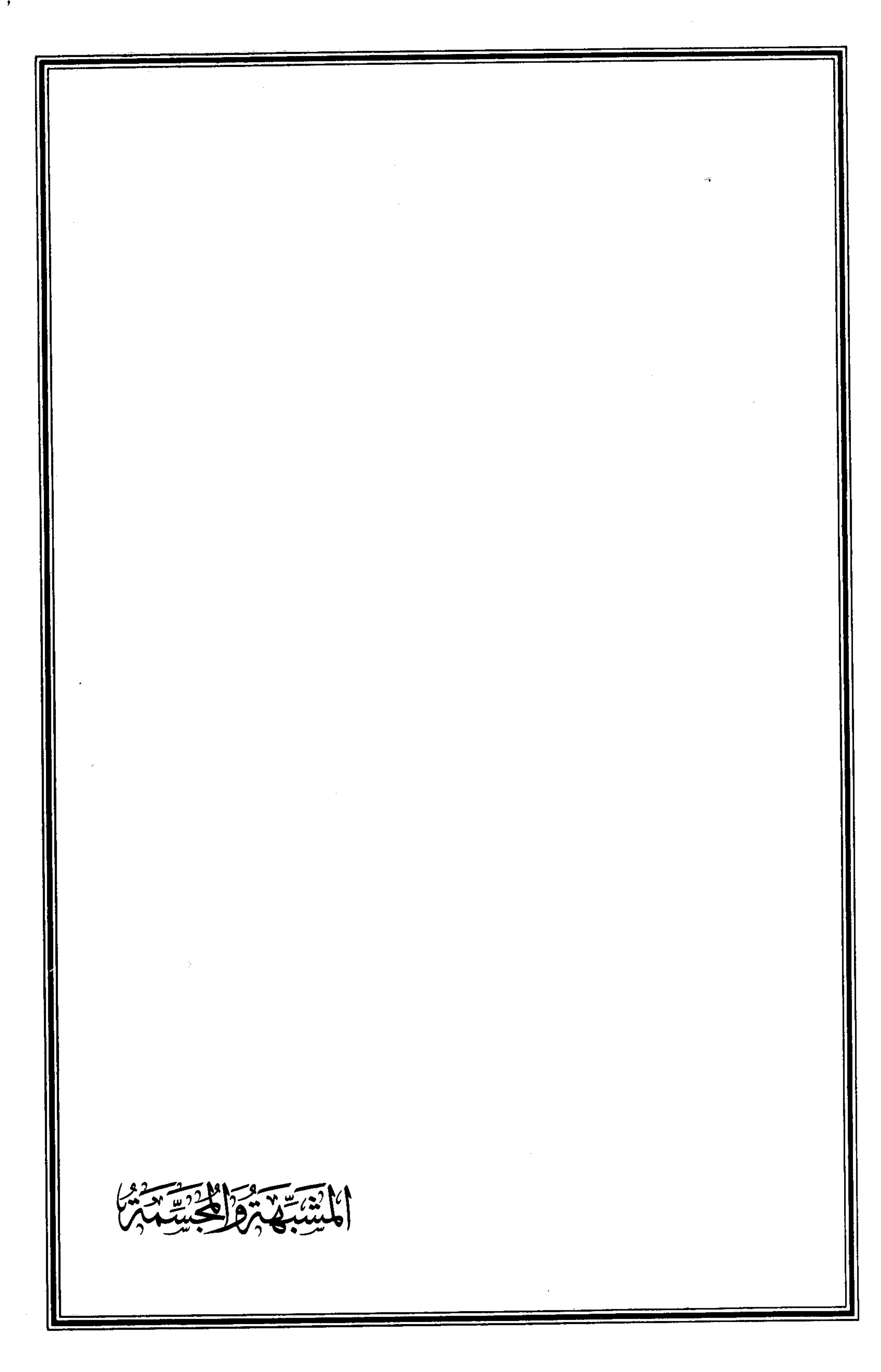
ويليه

شرح معنى الاستواء المطابق للبلاغة والتوحيد



بقلم

الأستاذ المهندس حامد عبد الرحمن


المشبهة والمجسمة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



بقلم

العلامة المفسر المحدث الفقيه الشيخ عبد الرحمن خليفة

المولود سنة ١٢٩٤ والمتوفى سنة ١٣٦٤

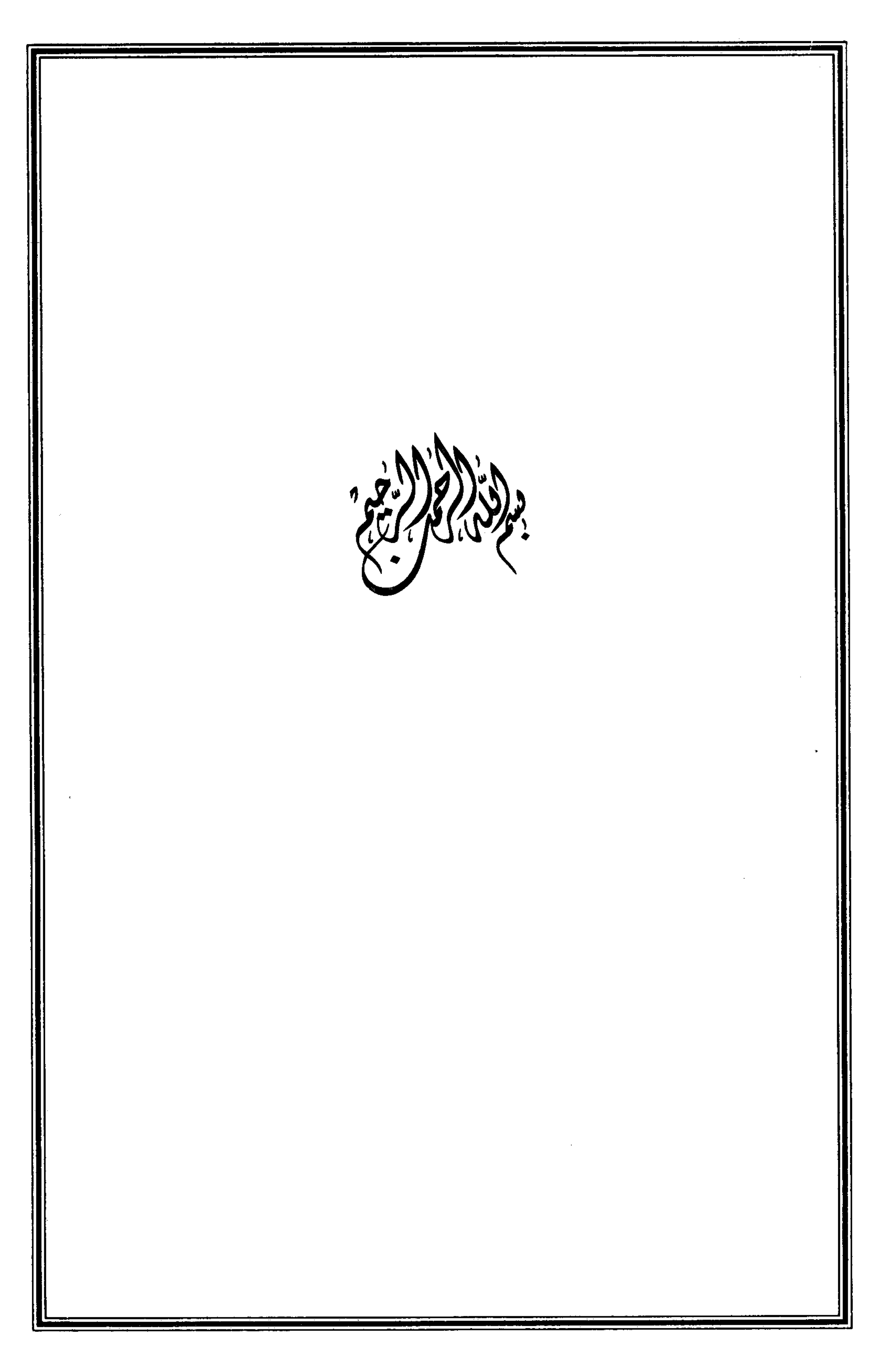
رحمه الله تعالى

ويليه

شرح معنى الاستواء المطابق للبلاغة والتوحيد

بقلم

الأستاذ المهندس حامد عبد الرحمن


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وآله الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن صحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه رسالة قيمة دبَّجتها يَراع عالمٍ من كبار علماء الأزهر الشريف، في الردِّ على بعض المنتسِبين إلى السلف بزعمهم، وقد أثاروا في بعض دعاويهم بلبلة في أذهان العامة، وادعوا أنهم ينتسبون إلى السلف وهم أبعد ما يكونون عن هذه الدعوى في علمهم ومنهجهم وسلوكهم.

وقد وقف علماء الأزهر الشريف في وجه هذه الدعوات المشبِّهة المشبوهة وأصحابها، وتَصَدُّوْا لهم بالحجج والبراهين، وأبطلوا مزاعمهم ودحضوا شبهاتهم.

وهكذا كان الأزهر ـ ولا يزال ـ رغم ما اعتراه من ضعف في الآونة الأخيرة ـ قلعة حصينة من قلاع الإسلام تتهاوى على حصونها شبهات الضالين، وزيف المدعين، وتأويل الجاهلين.

وهذه الفئة ـ التي تتستَّر بالانتساب إلى السلف الصالح ـ لا تزال تثير بعض الشبه، وتعكِّر جو العلم، وتحتكر الحق لنفسها، وتخالف ما اتفق عليه سلف الأمة وخلفها في بعض مسائل

العقيدة، ومن أهمها مسألة صفات الباري سبحانه وتعالى. وقد أوغلت في هذا الجانب حتى انزلقت إلى مزالق خطيرة، ومهاوي مردية.

وهذه الرسالة التي نقدمها اليوم فيها كشف لحقيقة هذا الموضوع، وتجلية له، ودفع للشبهات، وإزالة للركام الهائل من الكلام الذي يكثر فيه هؤلاء حتى كادوا أن يقعوا في أوحال التشبيه ويوقعوا غيرهم فيه، وهم لا يشعرون.

والناظر اليوم على الساحة العلمية، وما تموج فيه من تيارات مختلفة واتجاهات متباينة، يحزنه هذا الواقع الذي آلت إليه بعض المعاهد العلمية والجامعات الإسلامية حتى تجرأ الصغار على الكبار، فوجدنا من لا يستطيع أن يفهم كلام كبار العلماء يجعل من نفسه حكماً عليهم، فيخرج هذا من أهل السنة والجماعة، ويبدِّع الآخر، ويجهِّل الثالث.. وكثرت الكتب التي تتحدث عن عقائد العلماء مثل: «عقيدة الإمام الخطابي»، و «ابن عبد البر»، و «القاضي عياض»، و «البيهقي»، و «النووي»، و «الحافظ ابن حجر» وغيرهم من أساطين العلم. وجعلوا من ابن تيمية حكماً على العلماء السابقين واللاحقين، ونسبوا له العصمة في كل ما يقول، وهذا شَطَطٌ في الرأي، وتطفيف في المكيال. والأصل: أن نفهم عقيدتنا كما فهمها سلفنا من هؤلاء لا أن يتدَّرب بعض الطلاب سعياً للوصول إلى وظيفة وشهرة على تجريح هؤلاء العلماء والوقوع في عقائدهم والولوغ في أعراضهم.

وقد ساعد هؤلاء من يقوم بطباعة كتبهم ويروج لها، في الوقت الذي سكت فيه أهل الحق.

ولا شك أن توارد السكوت عن أمثال هؤلاء، مع خلوِّ الساحة لهم، وتوافر أسباب نشر مذهبهم، يؤدي إلى تغيير وجه العلم والانحراف بمسار الأمة عن منهجها، نسأل الله سبحانه أن ينفع بهذا الكتاب وأمثاله من الكتب التي عزمنا على نشرها، وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق والسداد، ويؤلف بين قلوبهم على الهدى والرشاد، والله ولي التوفيق.

الناشر

ترجمة المؤلف

فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن خليفة

هو العلامة المفسِّر المحدِّث الفقيهُ الجليل، والشاعر والأديب الكبير الشيخ عبد الرحمن خليفة بن الأستاذ الشيخ خليفة بن فتح الباب بن علي بن محمد الحناوي.

ووالده خليفة من كبار علماء الأزهر، وقد تلقى القراءات عن شيخه العلامة الكبير شيخ القراء الأستاذ الشيخ محمد المتولي، تلقى عليه القراءات العشر بعد أن جوَّد عليه القرآن. وقد نال العالمية من الأزهر، وتخرج عليه كثير من كبار العلماء، وخلَّف خمسة أبناء، أكبرهم العلامة الشيخ عبد الرحمن، وممن اشتهر منهم بالعلم أيضاً: الشيخ عبد الفتاح[1]، والشيخ محمود[2].

ولد الأستاذ الشيخ عبد الرحمن ـ رحمه الله تعالى ـ بالقاهرة سنة ١٢٩٤ = ١٨٧٧، وعني به والده، فحفظ القرآن بالمدرسة الحسينية، ثم جوَّده على والده، وانتسب إلى الأزهر، وحضر كل كتبه، وكان من شيوخه: الأستاذ الشيخ علي البولاقي، والشيخ علي الصالحي، والشيخ سعيد الموجي، ومفتي الديار محمد

---

(١) توفي العلامة الشيخ عبد الفتاح سنة **١٣٦٥** الموافق سنة **١٩٤٦** رحمه الله تعالى.
(٢) توفي العلامة الشيخ محمود سنة **١٣٧٧** الموافق سنة **١٩٥٧** رحمه الله تعالى.

عبده، وأستاذ الأدب الشيخ سيد علي المرصفي. ونال شهادة العالمية سنة ١٩٠٧.

وتقدّم لمسابقة التدريس بمدرسة عثمان باشا ماهر أول افتتاحها، فكان الأول في هذا الامتحان، وعُيِّن مدرِّساً بها من سنة **١٩٠٢** إلى أن توفي سنة **١٩٤٥** رحمه الله تعالى.

وقد تخرج عليه كثير من علماء النهضة العلمية والأدبية والثقافية، وله شروح قيِّمة على أمهات كتب الأدب، وله كتابات متقنة في المسائل الدينية العويصة، وكان يقوم على تحرير مجلة الإسلام، فيغيِّر ويبدِّل في المقالات التي تُرسل للنشر حتى يصقلها ويجعلها مناسبة.

وكان يشغل كل وقته بالبحث والتنقيب والتحصيل والكتابة والتحرير، فكان يجلس عقب صلاة العشاء يبحث ويكتب حتى مَطْلَع الفجر، وهو ساهٍ عن نفسه في كثير من الليالي.

وكان على دين وصلاح وخلق عظيم، فكان صبوراً شكورا، حليماً كريماً، لا يشكو ويتحمَّل ما يلاقيه بصبر وثبات، وابتلي بالمرض يتركه ويعاوده، وهو في كلِّ ذلك لاينِي عن العمل والسعي والجهاد. وكان سخياً كريماً، يده منطلقة بالبذل والعطاء والإنفاق، حتى إنه لم يخلِّف لأسرته شيئاً يذكر من حطام الدنيا.

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ مساء الاثنين ٦ ربيع الأول سنة **١٣٦٤** الموافق **١٩** فبراير سنة **١٩٤٥** عن نحو سبعين سنة، وقد انهار بموته ركنٌ قوي من أركان النهضة الإسلامية والأدبية في العالم الإسلامي، رحمه الله رحمة واسعة.

١ ـــ المشبهة والمجسمة(١)

بعث إليَّ صاحب العزة الأستاذ حامد بك عبد الرحمن الباشمهندس(٢) بالري سابقاً بمقال مطوَّل يشكو فيه من ظهور مذهب التجسيم باسم العقيدة السلفية، ويعجب من قيام جماعة بمصر تنشر كتباً محشوة بمذاهب الحشوية والمجسمة المنافية لعقيدة التقديس، وتنزيه ذات الله تعالى عن سمات الحوادث وصفات المخلوقين كإثباتهم استقرار الله تعالى بذاته على العرش، وأنه ينزل بذاته من العرش، ويُقْعِدُ الرسولَ معه إلى جنْبه، وأن كلامَه القائم بذاته صوتٌ إلى غير ذلك، حتى سَرَتْ هذه العقيدة إلى المدارس، ولقنها التلاميذ في كتبهم، فقد اطلعت في كتاب المطالعة للسنة الثانية بالمدارس الثانوية على عبارتين من هذا القبيل إحداهما ما جاء في صفحة ٣٦ من كتاب المطالعة المذكور ونصها: «إذ ذاك تظهر جالساً على عرش عظمتك».

والثانية: في الصفحة التي تليها ونصها: «إذ ذاك يشرق جبينك النوراني فنراك أنت أنت الله» فهاتان العبارتان يفيد ظاهرهما الجلوس والاستقرار، وأنَّ لله جبيناً نورانياً، وكلُّ هذا

---

(١) سنة (٨) عدد (١٢) سنة ١٣٥٨ = ١٩٣٩.

(٢) ستأتي عدة مقالات للأستاذ حامد بك عبد الرحمن رحمه الله تعالى ص٧٥ فما بعدها.

من صفات الحوادث إلا إذا صرف المدرس العبارتين عن ظاهرهما، وأفهم تلاميذه ما يفيد تنزيهه سبحانه عن التحيُّز والجسمية، وما يدرينا لعل هناك أشياء من هذا القبيل يروِّجها السلفيون الأثريون باسم حماية السنة، والعمل بظواهر النصوص، وإنْ مَنَع من الأخذ بظاهر النص مانعٌ شرعي، وهذا ما نشاهده فعلًا من دعاية واسعة للأخذ بمذهب الكرامية في إثبات الجهة والتجسيم والحركة والذهاب والمجيء لذات الله تعالى، وهذا كتاب «العلو للعلي الغفار»، و«كتاب السنة» للحافظ أبي عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، وغيرهما من الكتب التي على هذا الطراز، والتي تنشر على حساب الدعوة لمذهب خاص، ونحن نرى نشاط هذه الحركة في مصر، ولا نرى ما يقابلها من جمهرة العلماء وقادة الفكر وبخاصة علماء الأزهر، فهل يترك الناس بإزاء هذه المشكلة التي تمُّس العقيدة في صميمها بدون بيان حاسم!؟ وإلى متى السكوت؟ إلخ... بعث إليَّ الأستاذ حامد بك بهذا الخطاب أو بكلام هذا معناه، وشفعه برد مطوَّل[1]، ولكني رأيت أن أجيب على كلامه هذا بما لا يخرج عن معنى رده دون أن أجاري الخصوم في مهاتراتهم والتجائهم إلى الطعن الشخصي، بل أمضي في الموضوع لا ألوي على شيء من هذه السفاسف.

هذه المسائل التي يثيرها اليوم **(جماعة أنصار السنة)** أثيرت قديماً، وفرغ العلماء من الردِّ عليها، وهم مقلِّدون فيها لابن القيم وشيخه تقي الدين ابن تيمية وطوائف من الحنابلة، والعجب لهؤلاء يقلدون نفراً من العلماء انفردوا بمقالات وآراء وافقوا فيها

(١) نشر هذا الرد الممتع المقنع في سلسلة الكتب والرسائل التي أصدرناها.

الحشوية والكرامية، وخالفوا فيها جميع المسلمين سلفاً وخلفاً، ثم يزعمون مع هذا أنهم مجتهدون كلهم ليس في المتبوعين والأتباع منهم مقلد واحد، لأنَّ التقليد فيما زعموا شرك سواء أكان تقليداً في فروع الأحكام أم في أصول العقائد. !

والبرهان المحسوس على هذا الزعم من هذه الطائفة قول الأستاذ (أبي السمح) في (صحيفتهم) التي هي صحيفة (الخاصة) (بالعدد ٢٢ ص٢٣) «وهل يعرف التلاميذ الصغار هذه المذاهب[١]؟ إنهم يعلمونهم الضلال والتعصب، يعلمونهم ما لم يؤمروا بتعلمه، وليس بواجب، ولا مندوب تعليمه، بل حرام تعليمه وتلقينه للناشئ. أقول: حرام! والدليل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

فانظر إلى هذا المنطق السديد من حبرهم وكبيرهم (إمام الحرمين، وعالم المشرقين) ألا ترى أنه سجَّل بهذا المنطق الغريب الشرك على المسلمين وأبناء المسلمين من عصر تدوين مذاهب الأئمة المتبوعين إلى العصر الحاضر وما بعده من العصور المقبلة إلى أن يرثَ الله الأرض ومن عليها.

يا سبحان الله! أليس من الإنصاف أن يسجِّل الأستاذ على نفسه ومن يرى رأيه من شيعته ما سجله على غيره، حيث كان متبعاً لمذهب خاص يخالف مذهب غيره، ويفترق عنه في تفريع الأحكام المأخوذة من الأصلين الكتاب والسنة، وهل عنده من الشجاعة والاستقلال في الرأي ما يجعله يدين في المتشابهات بما

---

(١) يريد مذاهب الأئمة الأربعة.

يدين به عامة المسلمين من التفويض المطلق، دون أن يفسِّر الاستواء بالجلوس والنزول بالحركة، والكلام بالصوت إلخ كما هو مذهب السلف، أو يؤول النصوص بما يفيد التنزيه والتقديس كما هو مذهب الخلف. إن كان عنده هذا القدر من الشجاعة والاستقلال في فقه الأحكام وفهمهما من الكتاب والسنة، فليعلن لنا رأيه صراحة هو أو من يقول بنحلته في الأمور الآتية:

جاء في كتاب «السنة» للحافظ أبي عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل طبعة المطبعة السلفية بمكة (ص٥ ج١) ما نصه: «حدثني أحمد بن سعيد أبو جعفر الدارمي، سمعت أبي سمعت خارجة يقول: الجهمية كفار، بلِّغوا نساءهم أنهنَّ طوالق، وأنهنَّ لا يحللن لأزواجهن، لا تعودوا مرضاهم، ولا تشهدوا جنائزهم ثم تلا ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ إلى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ **فهل يكون الاستواء إلا بجلوس..!**

وفيه (ص٥٦ ج١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإنَّ الله خلق آدم على صورته» أتفوِّض أم تفسِّر الوجه بما يفهمه ظاهر اللفظ، وهل ينفعك بعد هذا التفسير أن تقول: إنّ الكيف مجهول!؟.

ومثله في (ص١٤٢ ج٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا يقول قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك».

وما يقولون فيما جاء فيه (ص٦٨ ج١) حدثني أبي، حدثنا أبو المغيرة، حدثتنا عبدة، عن أبيها خالد بن معدان قال: «إن الله لم يمس بيده إلا آدم خلقه بيده، والجنة، والتوراة كتبها بيده،

قال: ودملج الله لؤلؤة بيده فغرس فيها قضيباً، فقال: امتدي حتى أرضى، وأخرجي ما فيك بإذني، فأخرجت الأنهار والثمار».

وفيه (ص٧٠ ج١) حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: فعظم الرب وقال: وسع كرسيُّه السموات والأرض إنه ليقعد عليه فما يفضل منه إلا قِيدَ أربع أصابع، وإن له أطيطاً كأطيط الرَّحْل إذا ركب».

وفي (ص١٤٢ ج٢) منه حدثني أبي، حدثنا أبو المغيرة، حدثتنا عبدة بنت خالد بن معدان، عن أبيها خالد بن معدان أنه كان يقول: «إن الرحمن ليثقل على حملة العرش من أول النهار إذا قام المشركون، حتى إذا قام المسبحون خفف عن حملة العرش».

وهذا قليل من كثير مما في كتاب «السنة» رواية الحافظ أبي عبد الرحمن عن أبيه الإمام أحمد بن حنبل وغير أبيه من الرواة والمحدثين.

وفي كتاب «التوحيد» لابن خزيمة (طبعة المطبعة المنيرية) كثير من أمثال هذه الأحاديث، سنعرض لطرف منها في المقال التالي إن شاء الله ويمتاز كتاب (العلو للعلي الغفار) بأن الحافظ الذهبي بيَّن ما فيه من صحيح الأخبار وسقيمها، فمن ذلك (ص١٢٠) حديث يروى عن سعيد الجريري عن سيف السدوسي عن عبد الله بن سلام قال: «إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم ﷺ فأُقْعِدَ بين يدي الله على كرسيه» فقلت للجريري: يا أبا مسعود إذا كان على كرسيه أليس هو معه؟ قال: ويلكم هذا أقرُّ حديث في الدنيا لعيني.

قال الحافظ الذهبي: هذا موقوف ولا يثبت إسناده.

والمتتبع لكتاب (العلو) للذهبي يراه بناء على ذكر الآيات والأحاديث والأخبار التي يثبت بها جهة العلو والارتفاع والفوقية لذات الله تعالى والاستواء على العرش مراداً منه ظاهره، وهو الجلوس إلى غير ذلك مما أثبته الحنابلة من الصفات والأفعال والحركات أخذاً بما يفهم من ظاهر اللفظ، وما وقر في نفس العامي عند سماعه من غير تشبيه ولا تكييف ولا تحديد، ويمنعون تأويل اللفظ وتفسيره بما يصرفه عن ظاهره ومدلوله الوضعي، ويقولون: إنَّ هذا هو الموافق لمذهب السلف، وهم محجوجون من الجمهور بأنَّ مذهب السلف هو التفويض المطلق بدون بحث في ظاهر ما تشابه منها أو باطنه ولا في حقيقته ولا مجازه، بل طريقتهم في ذلك مجرَّد التفويض والتسليم والإيمان بأنها من عند الله.

والأشاعرة لا يوجبون تأويلها وصرفها عن ظواهرها، بل يجوِّزونه ولا يمنعون التفويض بالمعنى الذي ذهب إليه السلف، ولكن يمنعونه بالمعنى الذي ذهب إليه الحنابلة.

ولذلك يقول الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي في كتابه «دفع شبهة التشبيه، والرد على المجسمة ممن ينتحل مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ص٥ ـ ٦»: (ورأيت من أصحابنا من تكلَّم في الأصول بما لا يصلح، وانتدب للتصنيف ثلاثة، أبو عبد الله بن حامد، وصاحبه القاضي أبو يعلى، وابن الزاغوني، فصنفوا كتباً شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام على صورته، فأثبتوا له صورة، ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفماً ولهوات

وأضراساً، وأضواء لوجهه هي السبحات، ويدين وأصابع، وكفاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين، وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس، وقالوا: يجوز أن يَمسَّ ويُمسَّ، ويدني العبد من ذاته، وقال بعضهم: ويتنفس!... ثم إنهم يرضون العوام بقولهم لا كما يعقل، وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمية مبتدعةً لا دليل لهم في ذلك من النقل، ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى، ولا إلى إلغاء ما توجبه الظواهر من سمات الحدوث، ولم يقنعوا بأن يقولوا صفة فعل حتى قالوا صفة ذات!... ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا: لا نحملها على توجيه اللغة مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على معنى بر ولطف، ولا ساق على شدة، بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعروف من نعوت الآدميين، والشيء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن، فإن صرف صارف حمل على المجاز، ثم يتحرَّجون من التشبيه، ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون: نحن أهل السنة، وكلامهم صريحٌ في التشبيه، وقد تبعهم خلقٌ من العوام، وقد نصحتُ التابعَ والمتبوعَ فقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتِّباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول وهو تحت السياط: كيف أقول ما لم يُقَل؟ فإياكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه، ثم قلتم الأحاديث تحمل على ظاهرها، فظاهر القدم الجارحة، فإنه لما قيل في عيسى عليه الصلاة والسلام «روح الله» اعتقدت النصارى لعنهم الله تعالى أن لله تعالى صفة هي روح ولجت في مريم.

ومن قال: استوى بذاته فقد أجراه سبحانه وتعالى مجرى الحسيات، وينبغي ألا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل، فإنا

به عرفنا الله تعالى وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت لما أنكر أحد عليكم، إنما حملكم إياها على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل الصالح السلفي ما ليس منه، فلقد كسوتم هذا المذهب شيناً قبيحاً حتى صار لا يقال عن حنبلي إلا مجسم إلخ.

وقد كتب فضيلة الأستاذ محمد زاهد الكوثري وكيل مشيخة الإسلام بدار الخلافة العثمانية سابقاً في تعليقاته التي بذيل هذا الكتاب على قول الإمام أحمد بن حنبل: كيف أقول ما لم يُقَل؟ ولما سئل الإمام أحمد عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم ونحوها قال: «نؤمن ونصدِّق بها ولا كيف ولا معنى».

وقال أيضاً يوم سألوه عن الاستواء: «استوى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف» على ما ذكره الخلال في «السنة» بسنده إلى حنبل عن عمِّه الإمام أحمد، وهذا تفويض وتنزيه كما هو مذهب السلف.

وربما أوَّل في بعض المواضع كما حكى حنبل أيضاً عن الإمام أحمد أنه سمعه يقول: احتجوا عليَّ يوم المناظرة فقالوا: تجيء يوم القيامة سورة البقرة، وتجيء سورة تبارك. قال فقلت لهم: إنما هو الثواب. قال الله جل ذكره: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ وإنما تأتي قدرته.

وقال ابن حزم الظاهري في فِصَله: وقد روينا عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ إنما معناه: وجاء أمر ربك اهـ.

وهذا تأويل وتنزيه كما هو مذهب الخلف، وأما ما ينقل عن الإمام مما يخالف ما تقدَّم، فهو تخرص صديق جاهل، وسوء فهم لمذهب هذا الإمام، انظر صفحة ٧ من كتاب «دفع شبهة المشبهة» «طبع مكتبة القدسي».

٢ ــ المشبهة والمجسمة

في الفتوى الحموية الكبرى (ص٧٨) نقل شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحراني الحنبلي في ضمن ما نقله من نصوص أئمة العلماء الذين نقلوا مذهب السلف في المتشابه هذه العبارة بنصها: وكذلك قال أبو المعالي الجويني في كتابه «الرسالة النظامية».

«اختلف العلماء في هذه الظواهر فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في آي الكتاب، وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانعكاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب، قال: والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقداً، اتباع سلف الأمة والدليل السمعي القاطع، إلى أن قال: وقد دَرَج صَحْبُ رسول الله ﷺ على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين عن الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزيه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكلَ معناها إلى الرب تعالى، فليُجْرِ آية الاستواء أو

المجيء، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ومما صحَّ من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرناه اهـ.

وقول إمام الحرمين: على ما ذكرناه أي من إجراء ظواهر النصوص على ما ورد به السمع، وتفويض معانيها إلى الرب، وعدم التعرض لفهم ما تحتمله من المعاني التي نكل علمها إلى الله تعالى، وهذا يوافق في الجملة ما قرره العلماء من أن مذهب السلف إمرار المتشابهات على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد لما يترتب على إرادته من إثبات صفات الحوادث لله تعالى، وابن تيمية مع نقله كثيراً مما يستأنس به لرأيه من كلام المتكلمين يقول: وليس كل من ذكرنا شيئاً من قوله من المتكلمين وغيرهم يقول بجميع ما نقوله في هذا وغيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به.

ويقول أيضاً في موضع آخر: ولكن كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين[1]، ومحسناً للظن بهم دون غيرهم، ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أتى بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم، ثم لهم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم، فلو أنهم أخذوا بالهدى الذي يجدونه في كلام أسلافهم لرجى لهم مع الصدق في طلب الحق أن يزدادوا هدى، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة، ثم يتمسك بما جاءت به من الحق ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) يريد الأشاعرة.

قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ إلخ.

يلقي ابن تيمية بكلامه هذا شبه اليهود على الأشاعرة خاصة وأهل التقديس عامة، لأنهم لم يجاروا الممثلة والمشبهة في آرائهم، وينسى نفسه، ولا يحسُّ أن بينه وبين سلف الأمة أمداً بعيداً، فهم يفوِّضون ويكلون علم هذه الظواهر إلى الله تعالى وهو يجري المتشابه من الأسماء والصفات على ظاهره مراداً منه حقيقة المعنى المفهوم من اللفظ عند الإطلاق، إذ يقول في الاستواء إنه الاستواء الحقيقي الذي يعطيه ظاهر اللفظ ويفسره ـ كما وقع له في بعض كتبه ـ بالاستقرار والجلوس، ويثبت أن الله في السماء، وفوق العرش، وأن له وجهاً ونفساً وصورة وعيناً ويدين وأصابع وجَنْباً وساقاً وقدماً، ويجازف فيريد الظرفية الحقيقية والفوقية الحسيَّة، ويريد من الوجه وأخواته حقائقها لأنه لا يريد من لفظ المتشابه إلا ظاهر حقيقته التي تراد من اللفظ عند الإطلاق.

واسمعه مثلًا يقول في «الفتوى الحموية»: ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً البتة، مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه في الظاهر قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ وقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَل[1] وجهه» ونحو ذلك، فإن هذا غلط، وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة كما

(١) قبل (بكسر ففتح) أي قبالة وجهه.

جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ فأخبر أنه فوق العرش وهو يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه» وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة من غير وجوب مماسة أومحاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو يقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة إلخ.

يقول هذا ابن تيمية مع أن المعية الحقيقية لا تكون إلا بالمقارنة الحسية وهي تقتضي التحيُّز.

ويقول في هذا الموضع أيضاً: «ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ كان هذا أيضاً على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد.

وانظر إلى هذا التمويه والتناقض فهو يوهمك أن المعية المفهومة من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ معية حقيقية يدل عليها اللفظ بظاهره، ومعلوم أن مدلول اللفظ الحقيقي أن الله معهما أي بذاته، ولكن لما كان هذا المعنى غير مراد صرفه عن ظاهره فقال: معنى «إن الله معنا» أي علمه واطلاعه ونصره وتأييده، وهو لا يقول بصرف اللفظ عن ظاهره، وهذا الصنيع من ابن تيمية وما

عمد إليه من الجدل والمحاولات الكثيرة لا يمكن أن يكون هو صنيع السلف بحال، ولا يتأتى أن يتمشى مع طريقتهم، وهم لم يعيِّنوا هذه المعاني كما عيَّنها أهل الحديث والأثر بل سكتوا عنها، ولم يثبت عنهم أنهم بحثوها وفتشوها وتعبوا فيها كما تعب هؤلاء لأنهم مستغنون عن ذلك لسلامة فطرهم، وصحة عقولهم، وصفاء وجداناتهم، ومعرفتهم بمناحي كلام العرب، ومحالٌ أن يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من الشناعات والتشبيهات والمجازفات.

وهذا ابن خزيمة يقول في باب ذكر الوجه والصورة لله عز وجل من كتاب «التوحيد» له (ص١٦ ـ ١٧) وقد ذكرنا من الكتاب والسنة ذكر وجه ربنا بما فيه الغُنية والكفاية، ونزيده شرحاً فاسمعوا الآن أيها العقلاء: ما يذكر من جنس اللغة السائرة بين العرب هل يطلقون اسم المشبهة على أهل الآثار ومتبعي السنن نحن نقول وعلماؤنا جميعاً في الأقطار: إن لمعبودنا عزَّ وجل وجهاً كما أعلمنا الله في محكم تنزيله فذواه بالجلال والإكرام، وحكم له بالبقاء، ونفى عنه الهلاك ونقول: إن لوجه ربنا عز وجل من النور والضياء والبهاء ما لو كشف لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره، محجوب عن أبصار أهل الدنيا، لا يراه بشر ما دام في الدنيا الفانية، ونقول: إن وجه ربنا القديم لم يزل بالباقي الذي لا يزال فنفى عنه الهلاك والفناء.

ونقول: «إن لبني آدم وجوهاً كتب الله عليها الهلاك ونفىٰ عنها الجلال والإكرام غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء التي وصف الله بها وجهه يدرك وجوه بني آدم أبصار أهل الدنيا لا تحرق لأحد شعرة فما فوقها لنفي السبحات عنها التي بينها نبينا المصطفى ﷺ لوجه خالقنا.

ونقول: إن وجوه بني آدم محدثة مخلوقة لم تكن فكوَّنها الله بعد أن لم تكن مخلوقة، وأوجدها بعد ما كانت عدماً، وإن جميع وجوه بني آدم فانية غير باقية تصير جميعاً ميتاً، ثم تصير رميماً، ثم ينشئها الله بعد ما قد صارت رميماً فتلقى من النشور والحشر والوقوف بين يدي خالقنا في القيامة ومن المحاسبة بما قدمت يداه ونسيه في الدنيا مالا يعلم صفته غير الخالق الباري، ثم إما تصير إلى الجنة منّعمة فيها أو إلى نار معذبة، فهل يخطر يا ذوي الحجا ببال عاقل مركب فيه العقل يفهم لغة العرب ويعرف خطابها ويعلم التشبيه أن هذا الوجه شبيه بذاك الوجه، وهل ها هنا أيها العقلاء تشبيه وجه ربنا جل ثناؤه الذي هو كما وصفنا وبيَّنا صفته من الكتاب والسنة بتشبيه وجوه بني آدم التي ذكرناها ووصفناها غير اتفاق اسم الوجه وإيقاع اسم الوجه على وجه بني آدم كما سمى الله وجهه وجهاً، ولو كان تشبيهاً من علمائنا لكان كل قائل إن لبني آدم وجهاً وللخنازير والقردة والكلاب والسباع والحمير والبغال والحيات والعقارب وجوهاً قد شبه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب وغيرها مما ذكرت، ولست أحسب أن أعقل الجهمية المعطلة عند نفسه لو قال له أكرم الناس عليه: وجهك يشبه وجه الخنزير والقرد، والدب والكلب والحمار والبغل ونحو هذا إلا غضب وإلا خرج من سوء الأدب في الفحش من المنطق من الشتم للمشبه وجهه بوجه ما ذكرنا، ولعله بعد يقذفه ويقذف أبويه».

٣ ـ المجسمة والمشبهة(١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ. يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟» رواه البخاري.

الشرح والبيان

هذا الحديث رواه أصحاب السنن، ورواه البخاري في باب الدعاء والصلاة من آخر الليل من كتاب الصلاة، ورواه في باب الدعاء نصف الليل من كتاب الدعوات، وفي كتاب التوحيد أيضاً، ولكونه من الأحاديث التي يتعلق بها الغلاة من مثبتي الصفات، وفيهم مشبهة ومجسمة أحببت أن يكون موضوع حديثي.

يقول صاحب «الفتح» تعليقاً على قوله عليه الصلاة والسلام: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»: استدل به من أثبتَ الجهة، وقال: هي جهة العلو وأنكر ذلك الجمهور، لأن القول بذلك يفضي إلى التحيّز تعالى الله عن ذلك.

وقد اختلف في معنى النزول على أقوال: فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة تعالى الله عن قولهم.

---

(١) السنة ٨، عدد ١٧ سنة ١٣٥٨ = ١٩٣٩.

ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مكابرة، والعجب أنهم أولوا ما في القرآن من نحو ذلك، وأنكروا ما في الحديث إما جهلًا وإما عناداً.

ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمناً به على طريق الإجمال منزهاً الله تعالى عن الكيفية والتشبيه، وهم جمهور السلف، ونقله البيهقي وغيره من الأئمة الأربعة والسفيانين والحمَّادَيْن والأوزاعي والليث وغيرهم.

ومنهم من أوَّله على وجه يليق، مستعمل في كلام العرب.

ومنهم من أفرط في التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من التحريف.

ومنهم من فصل بين ما يكون تأويله قريباً مستعملًا في كلام العرب، وبين ما يكون بعيداً مهجوراً، تأول في بعض، وفوض في بعض، وهو منقول عن مالك، وجزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد.

قال البيهقي: وأسلمها الإيمان بلا كيف، والسكوت عن المراد إلا أن يرد ذلك عن الصادق فيصار إليه، ومن الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعيَّن غير واجب فحينئذٍ التفويض أسلم.

وقال في أوائل كتاب التوحيد بعد أن نقل كثيراً من أقوال العلماء ومذاهبهم سلفاً وخلفاً بإزاء هذه الظواهر: وقسم بعضهم أقوال الناس في هذا الباب إلى ستة أقوال:

قولان لمن يجريها على ظاهرها.

(أحدهما) من يعتقد أنها من جنس صفات المخلوقين، وهم المشبهة، ويتفرع من قولهم عدة آراء.

(والثاني) من ينفي عنها شبه صفة المخلوقين لأن ذات الله لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، فإن صفات كل موصوف تناسب ذاته، وتلائم حقيقته.

وقولان لمن يثبت كونها صفة، ولكن لا يجريها على ظاهرها.

(أحدهما) يقول: لا نؤول شيئاً منها بل نقول: الله أعلم بمراده.

(والآخر) يؤول فيقول: معنى الاستواء: الاستيلاء، واليد: القدرة ونحو ذلك.

وقولان لمن لا يجزم بأنها صفة (أحدهما) يقول: يجوز أن تكون صفة وظاهرها غير مراد، ويجوز ألا تكون صفة.

(والآخر) يقول: لا يخاض في شيء من هذا، بل يجب الإيمان به لأنه من المتشابه الذي لا يدرك معناه.

وقد وضع الإمام فخر الدين الرازي كتابه «تأسيس التقديس» في الرد على طوائف المشبهة والمجسمة، ويمكنني أن أثبت جملًا منه على سبيل المثال، فمن أمثلة ذلك أنه يقول: فعمدة مذهب الحنابلة أنهم متى تمسكوا بآية أو بخبر يوهم ظاهره شيئاً من الأعضاء والجوارح صرحوا بأنا نثبت هذا المعنى لله تعالى على خلافِ ما هو ثابت للخلق، فأثبتوا لله تعالى وجهاً بخلاف وجوه الخلق، ويداً بخلاف أيدي الخلق إلخ ويقول: وذكر أبو معشر المنجم أن سبب إقدام الناس على اتخاذ عبادة الأوثان ديناً

لأنفسهم هو أن القوم في الدهر الأقدم كانوا على مذهب المشبهة، وكانوا يعتقدون أن إله العالم نور عظيم، فلما اعتقدوا ذلك اتخذوا وثناً هو أكبر الأوثان على صورة الإله، وأوثاناً أخرى أصغر من ذلك على صورة الملائكة، واشتغلوا بعبادة هذه الأوثان على اعتقاد أنهم يعبدون الإله والملائكة، فثبت أن دين عبادة الأصنام كالفرع عن مذهب المشبهة.

ويقول في تقرير الدلائل السمعية على أنه تعالى منزه عن الجسمية والحيز والجهة: الحجة الأولى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

واعلم أنه قد اشتهر في التفسير أن النبي ﷺ سئل عن ماهية ربه، وعن نعته وصفته، فانتظر الجواب من الله، فأنزل الله تعالى هذه السورة، إذا عرفت ذلك فنقول: هذه السورة يجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات، لأنه تعالى جعلها جواباً عن سؤال المتشابه، بل وأنزلها عند الحاجة، وذلك يقتضي كونها من المحكمات لا من المتشابهات، وإذا ثبت هذا وجب الجزم بأن كل مذهب يخالف هذه السورة يكون باطلًا، فنقول إن قوله تعالى (أحد) يدل على نفي الجسمية، ونفي الحيِّز والجهة، أما دلالته على أنه تعالى ليس بجسم، فذلك لأن الجسم أقله أن يكون مركباً من جوهرين، وذلك ينافي الوحدة.

ويقول: واعلم أنه تعالى كما نصَّ على أنه تعالى أحد فقد نصَّ على البرهان الذي لأجله يجب الحكم بأنه أحد، وذلك أنه قال: (هو الله أحد) وكونه إلهاً يقتضي كونه غنياً عما سواه، وكل مركب فإنه مفتقر إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من

أجزائه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وذلك يوجب القطع بكونه أحداً، وكونه أحداً يوجب القطع بأنه ليس بجسم ولا جوهر ولا في حيِّز وجهة، فثبت أن قوله تعالى: (هو الله أحد) برهان قاطع على ثبوت هذه المطالب. وأما قوله: (الله الصمد) فالصمد هو السيد المصمود إليه في الحوائج، وذلك يدل على أنه ليس بجسم على أنه غير مختص بالحيز والجهة إلخ ويقول: لو كان تعالى مستقراً على العرش لكان الابتداء بتخليق العرش أولى من الابتداء بتخليق السموات، لأن تقدير القول بأنه مستقر على العرش يكون العرش مكاناً له، والسموات مكان عبيده، والأقرب إلى العقول أن يكون تهيئة مكان نفسه مقدماً على تهيئة مكان العبيد إلخ.

ويقول: الحجة الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ظاهر الآية يقتضي فناء العرش، وفناء جميع الأحياز والجهات، وحينئذ يبقى الحق سبحانه وتعالى منزهاً عن الحيز والجهة، وإذا ثبت ذاك امتنع أن يكون الآن في جهة، وإلا لزم وقوع التغيير في الذات إلخ.

ويقول: إن القائلين بكونه جسماً مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض لا يمنعون من جواز الحركة عليه، فإنهم يصفونه بالذهاب والمجيء، فتارة يقولون: إنه جالس على العرش وقدماه على الكرسي، وهذا هو السكون، وتارة يقولون: إنه ينزل إلى سماء الدنيا وهذا هو الحركة.

ويقول: لو كان الباري تعالى مختصاً بالحيز والجهة لكان الحيز والجهة موجوداً في الأزل، فيلزم إثبات قديم غير الله تعالى، ويقول بعد إثبات أن الأرض كرة، وإنما قلنا: أن الأرض

لو كانت كرة امتنع كون الخالق في شيء من الأحياز لأن الأرض إذا كانت كرة، فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلى بعض السكان هي تحت بالنسبة إلى البعض الآخر، فلو اختصَّ الباري تعالى بشيء من الجهات لكان تعالى في جهة التحت بالنسبة إلى بعض السكان، وذلك باطل بالاتفاق بيننا وبين الخصم، فثبت أنه يمتنع كونه تعالى مختصاً بالجهة.

ويقول: جميع فرق الإسلام مقرُّون بأنه لا بد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار، أما في القرآن فبيانه من وجوه:

(الأول): هو أنه ورد في القرآن ذكر الوجه وذكر العين، وذكر الجنب الواحد، وذكر الأيدي، وذكر الساق الواحدة، فلو أخذنا بالظاهر يلزمنا إثبات شخص له وجه واحد، وعلى ذلك الوجه أعين كثيرة، وله جنب واحد وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحد، وذكر مما لا بد فيه من التأويل حديث: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»، وحديث: «إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة من النار» وحديث: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن».

قال: وهذا لا بد فيه من التأويل لأنا نعلم بالضرورة أنه ليس في صدورنا إصبعان بينهما قلوبنا.

وحديث آية الكرسي وقوله عليه السلام: «إن لها لساناً يقدس الله تعالى عند العرش» ولا بد فيه من التأويل.

قال: فثبت بكل ما ذكرنا أن المصير إلى التأويل أمر لا بد منه لكل عاقل، وعند هذا قال المتكلمون لما ثبت بالدليل أنه سبحانه وتعالى منزه عن الجهة والجسمية وجب علينا أن نضع لهذه الألفاظ الواردة في القرآن والأخبار محملاً صحيحاً لئلا يصير ذلك سبباً للطعن فيها اهـ.

ثم لاخفاء أن في مذاهب العرب ومناحي كلامها سعة، يقولون: أمر بيِّن كالشمس، وجواد كالريح، وحق كالنهار واضح، ولا يريدون من ذلك سوى إثبات المعنى وتصويره في الخيال وتقريبه من الأذهان، والعرب تشبه الصورة بالشمس والقمر، واللفظ بالسحر، والمواعيد الكاذبة بالرياح، ولا تعد شيئاً من ذلك كذباً، ولا توجب حقيقته بل تريد من اللفظ معناه المجازي.

وعلى هذا فالنزول في الحديث ليس راجعاً إلى ذاته تعالى، بل هو عبارة عن نزول الملك الذي ينزل بأمره ونهيه.

قال البيضاوي: ولما ثبت أنه سبحانه منزَّه عن الجسمية والتحيُّز امتنع عليه النزول على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه، فالمراد نزول رحمته، أي ينتقل من مقتضى صفة الجلال التي تقتضي الغضب والانتقام إلى مقتضى صفة الإكرام التي تقتضي الرأفة والرحمة والإنعام اهـ.

وقوله تعالى: ﴿**فأستجيب**﴾ أي فأجيب دعاءه، وهو منصوب بإضمار أن لوقوعه جواب الاستفهام، ومثله «فأعطيه» ومثله «فأغفر له» ويجوز الرفع على الاستئناف.

ثم في الحديث من الفوائد: تفضيل الصلاة آخر الليل على الصلاة أوله، وتفضيل تأخير الوتر كذلك لكن ذلك في حق من يغلب على ظنه الانتباه ويطمع فيه.

وفيه أن آخر الليل أفضل للدعاء وأقرب للإجابة، وأن الاستغفار كذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، ولا يعترض بتخلف الإجابة في ذلك الوقت عن بعض الداعين، فإن ذلك يكون في الغالب للإخلال بشرط من شروط استجابة الدعاء والله أعلم.

مجسمة العصر

بعد أن كتبت ما كتبته أخيراً تحت عنوان (المجسمة والمشبهة) ظهر العدد الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ من تلك المجلة التي يسميها صاحبها (الهدي النبوي) وفيه مقالان أحدهما بعنوان: (إلى كتاب مجلة الإسلام) والآخر بعنوان: (الوثنية المصرية).

وقد تناول صاحب المقال الأول أشخاص كتاب المجلة، وتناول معهم الأستاذ الكوثري، وتناول زميله في هذه الحملة على كتاب المجلة فضيلة الأستاذ الدجوي، وأفرغا ما في جعبتيهما من سباب وشتائم وتجهيل وتكفير، مع أن هؤلاء جميعاً لا دخل لهم في موضوع الرد، والردُّ موجَّهٌ إليَّ أنا خاصة، فما الذي أقحم الباقين؟

والجواب على هذه الظاهرة العجيبة: أن أصحاب مذهب التجسيم، ودعاة الوهابية المتطرفة في مصر، بعد أن خفت صوت هذه الدعاية في نجد والحجاز على يد صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وقمعه لغلاة المتطرفين من دعاتهم، بدأت تظهر حركتها هنا، وأخذت أصداؤها تتجاوب في أفق مصر باسم السنية والسلفية!

ولما كان النافخون في أبواق هذه الدعاية يعز عليهم أن

يكشف الناس ما يخفون في أطوائها من عقيدة شركية، وكانوا يبالغون في التمويه على الناس وتضليل الأذهان، حتى لا يفطن أحد إلى ما ينطوون عليه من زيغ وضلال، فقد رأوا أن يرموا الناس بدائهم، ويظهروا بمظهر الحافظين لتراث النبوة، العاملين على إحياء مذهب السلف تغريراً وخداعاً وتلبيساً على العامة، وقالوا في الأمة المصرية: إنها أمة شركية عكف أفرادها على أوثان وطواغيت داخل القبور عبدوها من دون الله فصلوا إليها ولها، ودعوا أصحابها ودعوا بها وقدموا القرابين، ونذروا لها النذور.

وهكذا وقفوا أقلامهم، وصرفوا كل جهودهم إلى هذه الناحية من الطعن في المسلمين، ليخفوا بذلك داءهم، ويستروا عن أعين الناس اتجاههم.

ولما كانت مصر بحمد الله من أعرق الإسلام إسلامية، وأقواها إيماناً بالله وبالقرآن وبما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، لم تكن لتعير هذه الصيحات الصاخبة آذاناً صاغية، ولم تكن لتلتفت إلى ما ينظم هؤلاء من حملات إجرامية، وأخرى لسانية يؤجرون لها من ينبح العلماء، ويقع في أعراضهم، ويتهم اعتقادهم، وينكر عليهم ما عمرت به قلوبهم من إيمان صادق، ويقين ثابت، وما تلبست به جوارحهم من الأعمال التي تعبَّدهم الله بها، وكلفهم بأدائها.

ويوضح لك لون اتجاههم هذا ما كتبه صاحب مقال (الوثنية في مصر) بالعدد نفسه، فهو يقول: «لقد استفاضت الوثنية في بلادنا حتى دخلت كل بيت وشملت كل نفس، فأينما وليت وجهك ألفيْتَ صنماً قائماً يهرع إليه من يزعمون أنهم مسلمون في حاجاتهم متوجهين في دعواتهم تلقاءه».

فهذا رجل مصري منصوري[1] وهو أدرى ببلده وأعرف بها من غيره من أهل الأقطار الإسلامية الأخرى، قد سجل بلسان هذه الدعاية الخرقاء المجرمة على مصر أن الوثنية فيها منتشرة في كل بيت، قائمة بكل نفس، وأنك أينما وجهت ألفيت صنماً قائماً يهرعون إليه يستمطرونه حاجاتهم، ويشركونه مع الله في عباداتهم، ويخصونه بقرابينهم وقرباتهم!.

فأين هذه الأمة المصرية الوثنية؟ أهي في مخيلة هذا الداعية الجديد، أم هي مما أوحى به داعيتهم الأكبر، ذلك السلفي الظريف، ذو العقل الحصيف، والرأس الخفيف، الذي يشبه في حجمه رأس حية رقطاء، ركب فيه عقل امرأة خرقاء، وخلع عليها زهو حرباء، فهي تتلوى وتتلون، وتتكسر وتتغضن. يا عجباً! ما الذي حدا بكبيرهم هذا ورئيس تحريرهم أن يتترس بالقصيمي والمنصوري وفلان وفلان! ويرسل على الناس أفاعيه وضواريه بين مستخف وسارب، وشاتم وثالب، وناهش وناهس، ومقطب وعابس، وبين عواء وزئير، ونباح، وهرير، ومؤاء وصفير، ما هذه الضجة والجلبة؟

وما الذي حدث أيها القوم؟ هذا صاحبكم الشيخ أبو رية قد اعتزم أن (يشلح) الأستاذ الكبير الشيخ الدجوي، مستعدياً عليه الشيخ الأكبر طالباً إليه أن يطرده من الأزهر، وهذا بالطبع حسن وجميل في عين كبيركم هذا الجالس على عرشه، عرش روما لا عرش بلقيس ولا عرش إلّهه المستقر على ظهر بعوضة، يوزع على الناس حظوظهم من الإيمان أو الكفر، فهذا مؤمن وهذا كافر، وهذا صاحب سنن، وهذا عابد وثن.

---

(١) هو محمود أبو رية المعروف بعدوانه على السنة النبوية، وهكذا يكون أدعياء السلفية في كل عصر ومصر، ولله في خلقه شؤون؟!!

واسمع الشيخ المنصوري يقول: «وبينما أهل الحق يصدعون بهذه الدعوة، إذا بهم يجدون من يصدُّ عن هذه السبيل، لا من الجاهلين فحسب، ولكن ـ واحسرتاه ـ من بين من يسمون أنفسهم كبار العلماء».

ويقول: «لقد أصبحنا والله أضحوكة بين الأمم بهذه الخرافات التي يدعو إليها ذلك الذي ينتسب إلى كبار علماء الأزهر».

ويقول في الحديث الذي دار بينه وبين أخيه البروتستاتي: «هل هذا الشيخ الذي أفتى بوجوب (كذا) التوسل يعمل في الأزهر الآن أم هو خارج عنه؟ فقلت له: إنه لا يزال يعمل في الأزهر، فأجابني بأن هذا تناقض، وما دام يفتي في أمور تصادم أصول الدين مخالفاً في ذلك ما يقوله إمام الأزهر. وبخاصة في مسألة عظيمة كهذه تتصل بأصل العقيدة فإنه يجب إخراجه من الأزهر، وعندنا إذا خرج القسيس بتعاليم تخالف تعاليم الكنيسة فإنه يشلح ويطرد».

يا سبحان الله، هل مثل هذا الكلام ينشر في مجلة إسلامية تعبر عن رأي جماعة يرون أنه لا يصح أن ينتسب إلى الإسلام غيرهم!؟ وما بال هذا الداعية الأخرق يريد أن يفرض على مولانا الأستاذ الأكبر أن يأخذ بالتعاليم الكنسية في الأزهر (فيشلح) ويطرد من شاء من إخوانه كبار العلماء إذا خالفوا أصلًا من أصول هذه الطائفة الغريبة عن الأزهر، وعن سائر البيئات المصرية.

ثم اسمعه يقول مخاطباً أخاه البروتستاتي صاحب الحديث المزعوم: «وها أنت ترى أهل الحجاز جميعاً قد أظهروا دين الله على حقيقته، واقتلعوا جذور الشرك من أصولها، فهدموا القباب وسووا القبور المشرفة».

ونقول: إنه إن فرض تحقيق غرض هؤلاء، وتمت هذه الأمنية التي تجيش بصدورهم، وسمحت الحكومات الإسلامية ـ وهذا ما لا يجوز في نظر العقلاء، وإن أساغته عقول المجانين ـ نقول: لو أن الحكومات الإسلامية في مصر وغيرها قامت بهدم القباب، ويتبع ذلك بالطبع هدم ما في المساجد الأثرية وغيرها من مآذن ومحاريب، وتمَّ لهم ما يريدون أيضاً من هدم قبة المصطفى ﷺ[1] حتى يعبد الله في الأرض وحده دون هذه القباب، فسوف لا تتعلق نفوسنا بأحجارها، وسوف لا يجدون من قلب مسلم واحد حنيناً إليها من ناحية أنها أحجار تعبد، وأوثان يُصْمد إليها في الحاجات وتقصد، ولا من حيث أن هذه القباب تحتوي معبودات للمصريين وغير المصريين، بل من حيث إنها تراث أثري فني خالد استنفد من العصور السابقة الفنَّ والجهد والمال، أجل ليس بمعقول أن يحنَّ المصريون إلى هذه الأحجار من حيث إنها معبودات تقصد، وإلا لاقتنى كل منهم حجراً كما كان يفعل مشركو العرب، يأخذ أحدهم الحجر من أحجار الحرم يستصحبه في أسفاره، ليطوف به متى شاء.

إن المسلمين في جميع أقطار الأرض، وبخاصة العلماء والمثقفون منهم ليست قلوبهم فارغة من حب النبي ﷺ ولا من

---

(١) وهذا ما يدعو إليه المدعو مقبل الوادعي أحد الغلاة المتطرفين، وقد كتب في ذلك رسالة التخرج من الجامعة الإسلامية بإشراف حماد الأنصاري، والأدهى من ذلك ما كتبه الشمس الأفغاني المتوفى (سنة ١٤١٨) في رسالته: «جهود الحنفية في مقاومة البدع القبورية» وهي رسالة دكتوراه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أيضاً، تكشف عما يحمله هؤلاء من حقد دفين، وغل كمين، وسوء ظن بالمسلمين، وقد تبرأت الجامعة من الرسالة وصاحبها ﴿**إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا..**﴾.

حب إخوانه من الأنبياء والمرسلين، ولا من حب أولياء الله وعباده الصالحين، وهو حب قدوة واعتبار، وتقدير ما أجرى الله على أيديهم من خير للإنسانية، وهداية للبشر، وسبب هذا الحب والباعث عليه إنما هو حب الله لهم، واصطفاؤه إياهم، أتزعمون أن حبنا له حب تأليه وعبادة؟

يعلم الله أنكم كاذبون مفترون، ثم من منكم رأى عالماً أو متعلماً يطوف بالقبور، أو يتمسح بالمقاصير، أو يذبح باسم الأولياء الذبائح والقرابين، أو ينذر لهم النذور، دلوني على عالم واحد أو مسلم مصري متعلم يجهل آداب الزيارة ـ.

إن حاجة من يزور الأضرحة اليوم ـ وقليل ما هم ـ لا تعدو أن يؤنس الداخل إليها روح صاحب القبر بما يبدؤه به من السلام، ويقرؤه من آيات، ويرتله من أدعية يستمطر بها من الله الرحمات ويستنزل البركات، وأي مسلم يقرأ القرآن، ويعبد غير الرحمن!؟

على رسلكم أيها القوم، وثوبوا إلى رشدكم وتوبوا إلى بارئكم، واعلموا أنكم في بلد يصرف على تثقيف أبنائه وتعليمهم ما يكفي أن يقوم بنفقات مملكة عظيمة، واسعة الأكناف، مترامية الأطراف، وميزانية الأزهر وحدها أضخم ميزانية عرفها العالم لعهد إسلامي واحد، وليس في الأزهر اليوم قديم وحديث، والأزهر أزهر واحد، كما أن دين الله دين واحد، والأزهر هو الحافظ لدين الله في مصر كنانة الله في أرضه قديماً وحديثاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والشيخ الدِّجوي عالم من الطراز الأول، وسيرته وجهاده وبلاؤه الحسن في الذب عن حَوْزة الدين أصدق شاهد على ما نقول، تشهد بذلك مصر خاصة، والعالم

الإسلامي عامة، وهو بعد ذلك عضو كبار العلماء في الأزهر، وفخر مصر وعالمها غير مدافع، يعرف هذا الداني والقاصي، وإذا أراد مرتزقتكم أن يرتزقوا على حساب الطعن في مصر وأزهرها وعلمائه، فليعلموا أنهم في هذه المحاولة وغيرها فاشلون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وسأدع من الآن الشيخ القصيمي بين براثن الأستاذ الكوثري ليجرب حظه منه، ولكن هذا لا يمنع من أن أناقشه الحساب في بعض هناته الهيِّنات، فهذا القصيمي ينبز الكوثري بأنه تركي غير عربي. وأنه لذلك يكره العرب[1] إلخ.

والحقيقة التي لا يجهلها هو، والتي يعلمها جميع الناس أن الكوثري أعرب منه في عربيته، وألحن منه بحجته، بل إن أعرابية القصيمي دون عربية الكوثري بمراحل، فهو عربي السليقة وإن كان تركي المحتد، وذاك أعجمي الهجنة، وإن كان أعرابي المنشأ والمولد، و﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ ومن حدود ما أنزل الله على رسوله طرح العصبيات، ونبذ الجنسيات والقوميات.

والكوثريُّ يعرف العربية، معرفته بلغته الأصلية، وهو يجيد العربية نطقاً وكتابة وتأليفاً، ويضيف إلى إجادته وتبريزه في كلتا اللغتين العربية والتركية، إجادته التامة للغة الفارسية، فهو عربي تركي فارسي، ثم هو فوق ذلك لا يرى غير الإسلام وطناً، بدليل أنه هاجر من وطنه التركي، إلى وطنه الإسلامي، فراراً بدينه، واحتفاظاً بعقيدته وإسلاميته، ولو أنه ممن يحترفون الدعاية،

---

(١) وهو ما يردد صداه أيضاً المدعو بكر أبو زيد القضاعي.

ويتجرون بالعقيدة لكان في دولة الغازي مصطفى كمال باشا عاهل الأتراك، ودكتاتورها الأعظم ما يضمن له رغد العيش، ويكفل له بلهنية الحياة بين أهله وعشيرته ووطنه.

والكوثري عالم عالمي معروف تعرفه الأقطار كلها، ويرجع إليه الكثير منها في شؤونه العلمية كما هو مشاهد، وقد رحل كثيراً وطاف بمكتبات العالم الإسلامي، ووقف على الكثير جداً من المؤلفات النادرة في هذه اللغات الثلاث في كل فن، وقوف دراسة وبحث واستقصاء.

ويقول القصيمي في مهاتراته: «أما الشيخ عبد الرحمن خليفة فقد ألفيناه أبداً يتطاير مع رياح الأهواء المضلة، وألفيناه أبداً نصير البدعة والمبتدعين» «والشيخ عبد الرحمن خليفة الذي يحفل بهذا الكوثري ويبجله ويطريه. ويفاخر ويكاثر بعلمه، وبما كتبه من الهذيان، يتحامل على شيخ الإسلام ابن تيمية ويُطْنب في هجائه وذمه. بل ويطرب عند سماع ذلك. ورجل يبلغ به الضعف العلمي أن يذم أمثال ابن تيمية ويمتدح الكوثري خليق بالإشفاق والرثاء والعلاج».

وأقول: إن حبي وهواي وميولي ـ بحمد الله وتوفيقه ـ متجهة كلها نحو محابِّ الله ومراضيه. ورأيت الكوثري يناضل ويكافح وينفي عن الله صفات الحوادث التي يثبتها ابن تيمية بصريح عباراته، وعبارات من ينقل عنه صريح التجسيم من الحشوية أمثال الدارمي ومن على شاكلته تأييداً لرأيه. وتوثيقاً لمذهبه في التجسيم. ورأيتكم ومن على شاكلتكم تقلدون ابن تيمية تقليداً أعمى ولا تحيدون عن آرائه وأقواله في هذا الصدد قِيدَ أنملة، فمن منا أحق بالرثاء والإشفاق وأولى بالعلاج. ومن منا نصير البدعة والمبتدعين!؟

وأما شيخكم وإمامكم الحراني فقد ذمَّه كثير من كبار العلماء والأئمة قديماً وحديثاً. ولم يكونوا من الضعف العلمي في قليل ولا كثير.

واسمع قول الذهبي من نصيحة بعث بها إليه قال فيها يخاطبه: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتباً لمن شغله عيب الناس عن عيبه، إلى كم ترى القَذَاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك، إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذم العلماء».

ومنها في صفة أتباعه وصفة نفسه: «إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد. يا خيبة من اتبعك. فإنه معرض للزندقة والانحلال لا سيما إذا كان قليل العلم باطولياً شهوانياً، لكنه ينفعك ويجاهد عندك بيده ولسانه. وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه، فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل! أو عاميٌّ كذاب بليد الذهن! أو غريب واجم قوي الفكر! أو ناشف صالح عديم الفهم. فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل... إلى كم تصادق نفسك وتعادي الأخيار. إلى كم تصادقها وتزدري الأبرار! إلى كم تعظمها وتصغِّر العباد! إلى كم تخاللها وتمقت الزهاد! إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح بها والله أحاديث الصحيحين. يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك! بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار! أو بالتأويل والإنكار، أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟»[1].

---

(١) هذه نصيحة الذهبي لابن تيمية، وهي ثابتة النسبة إليه. ولا قيمة للكلام الخطابي العاطفي في إبطالها. قال الدكتور المنجد في كتابه عن ابن تيمية: =

هذا كلام الذهبي في صفة ابن تيمية وصفة أتباعه، وقد فرهم الذهبي رحمه الله عن ذكاء، وفتشهم عن تجربة وحلل نفسيته وتفسياتهم تحليلًا دقيقاً صادقاً، ثم هذا الوصف الذي طبقه الذهبي على أتباع ابن تيمية المعاصرين له هو بعينه الوصف المنطبق على أتباعه المعاصرين لنا في الوقت الحاضر حذو النعل بالنعل، وكأنَّما نظر إليهم رحمه الله بمنظار دقيق من وراء أزيد من ستة قرون فاستشفَّهم وعرفهم، وكم في ابن تيمية من نواح يمدح عليها، ونواح يذمُّ من أجلها. وناحية التجسيم هذه التي أولع بها ابن تيمية وناضل عنها هو وكثير من مشايعيه وأتباعه معدودة من أكبر شذوذاته، وأشنع شناعاته.

= «سيرته وأخباره عند المؤرخين» ص١٤ بعد أورد «النصيحة الذهبية»: «شك بعضهم في نسبة هذه النصيحة للذهبي ولا شك عندنا أنها له. فقد نقلت مخطوطتها من خط الذهبي، ولم ينكرها أحد من العلماء الذين نقلوها كتقي الدين ابن قاضي شهبة وغيره، ثم إن هذا هو الأسلوب الذهبي عندما يهاجم» انتهى.

مجسمة العصر

من فترة غير قصيرة ثارت بيننا وبين أصحاب مجلة (الهدى) معركة حول نفي التجسيم، وتنزيه الله تعالى عن شبه المخلوقين، ثم لم نلبث أن لمحنا في مثار غبارها ذلك «الشيخ النجدي» ماثلًا في صورة إبليس اللعين، وكأنما وقف عليهم في «دار ندوتهم» يشير عليهم بالرأي، وأن يجعلوه في هذه المعارك الناشبة صاحب اللواء، وقائد الكتيبة الحمراء، فكتب مقالًا حشاه بكل رأي سخيف، ولفظ غير شريف، ونال من علماء الأزهر نيلًا مزرياً قبيحاً، فرددنا عليه رداً وقف في حرارة النقد عند الدرجة التي أردناها، فثار ثائر (الشيخ النجدي) وهاجَ هائجه، وورم أنفه وأنف أصحابه، وبعد لأي صدرت مجلتهم، ولكن بعد فوات الوقت المحدد لصدورها، فإذا هي مثلهم وارمة الأنف «جوفاء معتلة في جوفها ورم» فقلنا: لهم الويل، ماذا في صحيفتهم؟ وما الذي حدث حتى أصبحت بعد حجمها الهزيل اللطيف، كحشية من ليف!

فقيل لنا: إن ذلك الشيخ اكتتب لتكبير حجم المجلة حتى تتَّسع للرد علينا نحن الخصوم... مكث ذلك النجدي الهجف الجلف الجافي الأخرق شهراً وأياماً يجمع ألفاظ السباب والشتم والقدح والقذف والافتراء والكذب، وهي ألفاظ حفظها ومرن عليها وأعدها لمواقفه الجدلية مع خصومه، وكم أفادته في

مواقفه، لأن خصومه يترفعون عن منازلته القذرة بهذه الأسلحة وكم رأى أنها مع شيء من المغالطات والتمويهات ناجحة وموصلة للغاية التي يرمي إليها من كسب الموقعة.

ورأينا رئيس هذه الجماعة ـ خذله الله ـ يدعونا إلى كلمةٍ سواء، ويظهر أمام قرائه الأغرار المخدوعين بمظهر يجعله في أعينهم قديساً ونبياً من الصالحين، وسلفياً بزَّ الأولين والآخرين، فهو يقول: «وليس من شيمة أنصار السنة المحمدية، ولا مما ينبغي لمجلة الهدي النبوي أن تجاري السبابين الشتامين» ويقول: «ولم يغلب رسول الله ﷺ أعداءه باللدد ولا بالقوة ولا بالعنف والشدة، وإنما غلبهم بالحلم، والعفو والصفح» إلخ.

يقول هذا في غير خجل، وينسى أنهم السبابون الشتامون البادئون بكل شتم وتكفير وتجهيل وتضليل، المعتدون على كرامة هذه الأمة في كل ما يكتبون، القائمون بدعاية تبشيرية خطرة في مصر ينعُم بها بال المستعمرين، وتقرُّ بها أعين المسيحيين، الضاحكون على ذقون العامة ببترهم من جسم الأمة بدعوى أن الداعين سلفيون موحدون، وغيرهم عبَّاد وثن وجهميون معطِّلون، تقول هذا وغيره، أيها الشيخ الداغر الداعر، وقبلك بأسطر كتب ذلك الرقيع السباب العياب أزيد من خمسين صفحة تعلم أنت مبلغ ما احتوت عليه من سبّ وإقذاع لي ولعالمَيْن جليلين هما فخر العالم الإسلامي لا يدفع ذلك ولا يماري فيه إلا أمثالكم من سَفَلة الناس وسقاطهم «وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه».

أرأيت كيف عنون مقاله؟ إنه عنونه بقوله: إلى نفاة وجود الله من كتاب مجلة الإسلام. لقد اندحروا، لقد وقعوا، فأين أين الفرار، نعم إن كان جمهور العلماء من المسلمين فروا

أمام أسلافكم، ولم يحكموا خطط الدفاع عن عقيدة التنزيه، ويهدموا ما بناه سلفكم من صروح عقائد التجسيم الزائغة، فنحن إذاً نفرُّ من الميدان، ويفرُّ معنا كل من ينزِّه الخالق سبحانه عن المكان والجهة، وينزهه عن الاستواء بمعنى الاستقرار بذاته على عرشه إلخ، ولا يكون نفي المكان، والاستقرار الذاتي وغير ذلك مما يوجب المثلية، وتشبيه الخالق بالمخلوقين نفياً لوجود الله تعالى، لأنَّ كل مسلم يعتقد أن الله تعالى موجود، وأن وجوده واجب، ليس هناك مسلم ينفي وجود الله تعالى لا من كتاب «مجلة الإسلام» ولا من غيرهم، ولا يتوقف وجود ذاته تعالى على وجود مكانٍ له، وأنتم تقولون: إن لم نثبت له المكان وغيره مما أثبتته ظواهر النصوص من غير تأويل ولا صرف للنصوص عن الظاهر الحقيقي، فقد نفينا وجود الذات، وهذا سرى إليكم أيها الجهلاء المارقون من أن الله تعالى إن لم يكن كغيره من المخلوقات محسوساً ومحصوراً في المكان فلا وجود له؟..

وليست تزكية ابن القيم لكتابي الدارمي «وكون شيخ الإسلام ابن تيمية وصى بهما أشد الوصية وعظمهما جداً» حجة توجب الأخذ بكل ما فيها، وإن من يأخذ بما فيهما من الكفر الصريح لهو كافر بإجماع الأمة، وقد سبق إلى هذا الكفر الصريح الشنيع القصيمي المأفون المأبون(١) في دينه معبود «حامد» ومولاه.

وفي هذا الكتاب المطبوع بتحقيق حامد الفقي وعلى نفقته ما تقشعر له الأبدان: فمما لم يذكره وهو كثير قوله (ص ١٠٢): ثم عاد المعارض إلى مذهبه الأول ناقضاً على نفسه فيما تأول في

---

(١) هذه الكلمة استعرناها من كتاب نقض الدارمي، وكثيراً ما ينبز بها معارضه بل وبأقبح وأشنع.

المسألة الأولى فاحتج ببعض كلام جهم والمريسي فقال: إن قالوا لك: «أين الله؟ فالجواب لهم: إن أردتم حلولاً في مكان دون مكان، وفي مكان يعقله المخلوق، فهو المتعالي عن ذلك لأنه على العرش، وبكل مكان. فيقال لهذا المعارض: أما قولك كالمخلوق فهذه كذبة منك وتلبيس، ولا يقوله أحد من العلماء، ولكنه بمكان يعقله المخلوقون المؤمنون بآيات الله، وهو على العرش فوق السماء السابعة دون ما سواها من الأمكنة، وعلمه محيط بكل مكان، وبمن هو في كل مكان، من لم يعرفه بذلك لم يؤمن، ولم يدر من يعبد ومن يوحد اهـ فهو بذلك قد عيَّن مكان إلهه وحدده وزعم مكانه معقولاً لا مجهولاً، وقال من لم يعرفه بالمكان لم يؤمن ولم يدر من يعبد ومن يوحِّد، ومن هنا أخذ أولئك الطغام الوالسون المدلسون أن من لا يثبت لله المكان والجلوس والاستقرار والإتيان والمجيء والنزول والجوارح إلخ لم يدر من يعبد ومن يوحد، وكان من نفاة وجود الله تعالى.

وقد نحا ابن القيم في نونيته منحى الدارمي وأضرابه، وخلط في الاعتقاد خلطاً شديداً فمن ذلك قوله:

اللَّهُ فَوقَ العرش فوق سمائه	سبحان ذي الملكوت والسلطان
ولعرشه منه أطيط مثل ما	قد أطَّ رحل الراكب العجلان

وقوله:

والفوق وصف ثابت بالذات من	كل الوجوه لفاطر الأكوان
لكن نفاة الفوق ما وافوا به	جحدوا كمال الفوق للديَّان
بل فسَّروه بأن قدر الله	أعلى لا بفوق الذات للرحمن

أي أن الأشاعرة وجمهور المسلمين فسروا الفوق بفوقية القدر لا الفوقية الذاتية.

ولا شك أن القول بالفوقية الذاتية ونحوه على ما ذهب إليه ابن زفيل والدارمي وابن تيمية، ومن تابعهم من حَشَوية العصر يوجب التشبيه، لما يترتَّب على اعتقاد حصول الذات في المكان المعين المعقول المعلوم من تشبيه الله تعالى بالحادث المحوز في المكان، ووصفه سبحانه بشيء هو من صفات خلقه، وهو أيضاً يوجب التجسيم لإثبات هؤلاء المجسِّمة لله تعالى ما هو من اللوازم البيِّنة للأجسام، وأما العلم ونحوه مما لم يكن جوهراً مقدراً من الأجسام التي يلزمها المكان لزوماً بيناً، فلا يلزم من اتصاف الله تعالى به، ما يلزم على اتصافه بالفوقية الذاتية، وذلك معلوم بالبداهة.

وهؤلاء الحَشَوية على غلوِّهم وإمعانهم في اللغو والباطل لهم أُغلوطات مقصودة، ومغالطات مكشوفة، لا تلبث أن تذوب أمام حرارة البرهان، وتفتضح بما يلقى عليها من الأضواء الكاشفة، فهم يقولون دائماً إن الوجه واليدين واليمين والساق والقدم والأصابع، والاستواء والفوقية، والمجيء والنزول إلخ صفات إذا كان إثباتها لله يوجب تشبيهاً، فإثباتُ غيرِها من الصفات كالحياةِ والعلم والإرادة والقدرة يوجب أيضاً تشبيهاً ولا فرق، لأن كلا من هذين النوعين يتصف بهما الحادث، وقد قلتم باتصاف ذات الله تعالى بالحياة والعلم إلخ ولم يلزم على ذلك عندكم تشبيه ذاته بذوات خلقه، فلم لا تقولون أيضاً إن ذات الله تتصف بما ورد في الكتاب والسنة من الوجه واليدين، والاستواء على العرش بمعناه الذي هو استقرار من غير تأويل، والثقل على العرش حتى يئط أي سمع له صوت كأطيط الرحل بمعناه من غير تأويل، إنكم إن لم تؤمنوا بهذا كله تكونوا نفاة معطلين، فكما

قلتم له علم لا كالعلوم، وإرادة لا كالإرادات، وقدرة لا كالقدر، فقولوا أيضاً له وجه لا كالوجوه، ويد لا كالأيدي.

وهم يتوسعون في إثبات هذه الظواهر من المتشابه على حالها وعلى ما يفهم منها من غير تأويل ولا صرف لها عن ظاهرها، ونحن نصرفها عن ظاهرها ونؤولها بما يوافق العربية طلباً للتنزيه وبعداً عن التشبيه، وهذا هو موضع النزاع بين المشبهة وأصحاب التنزيه، ومثار الجدل بيننا وبين خصومنا اليوم، وقد تقرأ لشيخ الإسلام ابن تيمية تسعين وجهاً أو سبعين وجهاً في إثبات هذه الظواهر، والرد على الأشاعرة فيما عمدوا إليه من التأويل، وحملهم المتشابه على المحكم تنزيهاً لله سبحانه، وهو شديد الجرأة والعناد، يريد أن يصل إلى مطلوبه بالثرثرة والزخرف اللفظي، وإن لم يبنِ كلامه على أساس من العقل والمنطق الصحيح.

وفي الحق: إن الناظر في كلامه يشعر أنه في تقرير مطالبه يسلك من وعورة البحث مسلكاً خشناً يريك فيه من محارات العقول، ومتاهات الأفهام، ما يدعك تتيه معه في أودية من الضلال، والسبب في ذلك واضح، وهو أنه يبحث في ذات الله تعالى وصفاته بحثاً يجعلها على صورة ما يرد في النصوص من الظواهر، ولذلك يقول تقي الدين السبكي في كتابه «السيف الصقيل» في حق هذا الرجل: «ثم جاء في أواخر المائة السابعة رجل له فضل ذكاء واطلاع، ولم يجد شيخاً يهديه وهو على مذهبهم، وهو جسور متجرِّد لتقرير مذهبه، ويجد أموراً بعيدة فبفضل جسارته يلتزمها: فقال بقيام الحوادث بذات الربِّ سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه ما زال فاعلاً، وأن التسلسل ليس بمحال

فيما مضى كما هو فيما سيأتي. وشقَّ العصا، وشوَّش عقائد المسلمين، وأغرى بينهم» إلخ.

وكتب الأستاذ الكوثري في تكملة الرد على نونية ابن القيم فقال: «اتفقت فرق المسلمين سوى الكرامية وصنوف المجسمة على أنَّ الله سبحانه منزَّه عن أن تقوم به الحوادث، وأن تحل به الحوادث، وأن يحل في شيء من الحوادث، بل ذلك مما علم من الدين بالضرورة، ودعوى أن الله لم يزل فاعلًا متابعة منه للفلاسفة القائلين بسلب الاختيار عن الله سبحانه، وبصدور العالم منه بالإيجاب، ونسبة ذلك إلى الإمام أحمد والبخاري كذب صريح، وتقوُّل قبيح» إلى آخر هذا البحث النفيس.

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ سلامة العزامي القضاعي الشافعي في رسالته «فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان» وهي رسالة جعلها كالمقدمة لكتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي المطبوع حديثاً بمطبعة السعادة بمصر في صدد الكلام على الحشوية ما نصه: «وهي من الحشوية مغالطة مفضوحة، وباطل مكشوف للناقد البصير، فإن الوجه والعين واليد والرجل والساق أجزاء وأبعاض وأعضاء لما هي فيه من الذوات لا معان وصفات تقوم بموصوفاتها، فأين هي مما ألحقوها به من الحياة والعلم والإرادة والقدرة؟ وهل هذا إلا كتشبيه العالم بالعلم، والأبيض بالبياض، وهل تسميتهم لها بالصفات إلا تستر لموقفهم من التشبيه، بما لا يسترهم عن ذوي الأنصار النافذة، وتحجب عن سهام النقدة من أهل السنة الراسخين في علم الكتاب العزيز بنسج العنكبوت، وهو كما علمت لا ينفعهم، ولا يدفع عنهم منها شيئاً، فإن تهرب منهم متهرب ـ وكثيراً ما يفعلون ـ وقال: إنا لا

نريد بالوجه ما هو أجزاء وأبعاض، بل نريد ما هو صفات حقيقية كالعظمة والملك والبصر والقدرة ونحوها ولكنا لا نعيِّن المراد ـ قلنا: مرحباً بالراجعين إلى الحق، وبشرى بالرجوع إلى صميم الإسلام ولبِّ العلم والسلفية الحقة، ولا نزاع بيننا وبينكم فقد انصرفتم عن الحشوية، ولكنهم والأسف ملء فؤادنا عليهم على ذلك لا يثبتون، وما أسرع ما تراهم إلى القول بالتجزئة والتشبيه يرجعون، فنعوذ بالله تعالى من الفتن، ما ظهر منها وما بطن».

ثم قال: **تنبيه مهم**: إذا سمعت في عبارات السلف قولهم إنما نؤمن بأن له وجهاً لا كالوجوه، ويداً لا كالأيدي، فلا تظن أنهم أرادوا أن ذاته العلية منقسمة إلى أجزاء وأبعاض، فجزء منها يد، وجزء منها وجه غير أنه لا يشابه الأيدي والوجوه التي للخلق حاشاهم من ذلك، وما هذا إلا التشبيه بعينه، وإنما أرادوا بذلك أن لفظ الوجه واليد قد استعمل في معنى من المعاني، وصفة من الصفات التي تليق بالذات كالعظمة والقدرة غير أنهم يتورعون عن تعيين تلك الصفة تهيباً من التهجم على ذلك المقام الأقدس.

ثم قال: ويدلك على إرادة السلف ما قلنا ما نقله الذهبي نفسه في كتابه الذي سماه «العلو» عن الإمام مالك وشيخه ربيعة ونظرائهما أنهم قالوا حين سئلوا عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ والكيف غير معقول، وكذلك نقل الذهبي بالسند في هذا الكتاب عن أبي عبد الله الحاكم وأبي زرعة اتفاق جميع فقهاء الأمصار من أهل تلك الأعصار، أنهم يؤمنون بهذه الصفات من غير كيف، فانظر كيف نفوا الكيف مجمعين، وهو صريح في أنها ليست أجزاء ولا جسمانية، فإن الاستواء الجسماني، والوجه الجسماني وما إليه لا بد لها من

الكيف قطعاً، إذ هو لازم من لوازم ذاتها لذاتها، ونفي لازم الماهية لذاتها يستلزم نفيها عند جميع المنصفين من العقلاء، الذين لم يصابوا بالأهواء، وانظر كيف سموها صفات، ولم يسموها أبعاضاً وأجزاء اهـ.

ثم بعد هذا الكلام: هل بقي للقصيمي أسئلة عشرة وبواهر وقواهر، وتصديات وتحديات، وأنى يكون لكلام مردود ومذهب منقوض قديماً وحديثاً أسئلة وأجوبة؟.

أما كتاب الدارمي فنحن نعيب الكتاب، ولا شأن لنا بمؤلف الكتاب، إلا عند التعرض لما فيه مما هو كفر صريح وتجسيم قبيح والجناية جنايتكم. وكتاب بخط «شويل» وطبع أخيه «سبع الليل» له ولك ولهم الويل، حقيق بأن يكون دعيَّ النسب، دخيلًا على صحاح الكتب أو يكون على الأقل فيه حشو وزيادات، ودس وإضافات، بالرغم مما عليه من سماعات، وهل بعد فضائح هذا الكتاب التي نشرها الأستاذ الكوثري في مقالاته لا تخجلون؟ تعلمون أن هذه الكتب يفرح بها المستشرقون كثيراً ويشترونها بأغلى ثمن ويتخذون منها عدتهم لمهاجمة الإسلام فكيف بهم إذا شروا هذا الكتاب كما شروا كتاب السنة المنسوب لعبد الله بن أحمد بن حنبل من قبل، ورأوا فيه مثل هذا الحديث: عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله مم ربنا فقال من ماء مرور[1] لا من أرض: لا من سماء، خلق خيلًا فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق».

وهل يغنينا بعد ذلك أن يقال: إن هذا الحديث لا أصل له عند العلماء.

---

(١) هكذا هي «مرور» انظر (ص١٤٣) من كتاب الدارمي المطبوع على نفقة حامد الفقي.

كتاب السنة
المنسوب للحافظ عبد الله بن الإمام أحمد
رضي الله عنه

نحن لا نعيب الحفاظ، ولكن نعيب ما نقرؤه في تضاعيف ما ينسب إليهم في كتاب مطبوع بقصد التشويش على عقائد المسلمين، وأكتفي هنا بحديث أدلي به إلى فضيلة الأستاذ الشيخ خليل الخالدي رئيس محكمة النقض والإبرام في فلسطين سابقاً، وهو العالم الحجة الفقيه الأصولي الرحالة المعروف، قال حفظه الله:

عبد الله بن أحمد بن حنبل روى عنه الإمام أبو حاتم الرازي في كتابه المسمى بالجرح والتعديل، وهذا الكتاب الذي عليه سماعات كثيرة، يعتبر أصلًا صحيحاً، ونسخه من أصح النسخ، وهو أبرز كتاب، وأجل كتاب في الجر ح والتعديل، وكل من كتبوا في هذا الشأن، فهم عيال على هذا الكتاب، وإذن فيجب علينا التثبت في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، والقاعدة عند المحدثين والأصوليين أنه لا يثبت الكتاب لمؤلفه إلا إذا وجد له أصل صحيح، والأصل الصحيح لا يعدو أحد وجهين: إما أن يكون بخط المؤلف، أو يكون قد ثبت عنه ثبوتاً صحيحاً بالرواية عن

المؤلف نفسه بروايات صحيحة عليها خط المؤلف، أو خط الحفاظ الأثبات العدول، فبأحد هذين الوجهين يثبت أن الكتاب لمؤلفه، وبدون ذلك لا يثبت، وما علينا إلا الرجوع إلى قول أبي حاتم في الإمام عبد الله بن الإمام أحمد، وقد روى عنه كثيراً وعدله، وهو بلا شك حجة وأي حجة، ثم إن نسبة هذا الكتاب له لم تعرف، ولا يبعد أن يكون دس عليه فيه أشياء، مثال ذلك ما وقع في كتاب «الفقه الأكبر»، فإني مكثت مدة أبحث عن أصل صحيح لكتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة حتى أنه في سنة **١٣٥١**هـ لما كنت بالمدينة المنورة وجدت أصلين صحيحين في مكتبة شيخ الإسلام «عارف بك» ووقفت في إحداهما على قوله: «وأبواه ﷺ ماتا على الفترة» وفي الأخرى «وأبواه ﷺ ماتا على الفطرة» فتحقق لدي أن النسخ الشائعة الذائعة التي نرى فيها أن أبويه ﷺ ماتا على الكفر، قد صحفت فيها كلمة الكفر عن إحدى هاتين الكلمتين: الفترة أو الفطرة لقربها منهما في الصورة الخطية، ونأسف لأن الذين كتبوا على هذه الجملة كعلى القاري، وأكمل الدين، وأمثالهما، لم يتحروا.

ثم قال الأستاذ: ولا يغيبن عن الأذهان أن كتباً كثيرة نسبت لأعلام العلماء وهي في الحقيقة ليست لهم، وأن كتباً أخرى دخل عليها التحريف والتغيير والمسخ، وهذا في جملته وتفصيله لا يخفى على من يتتبع ذلك في مظانه اهـ كلام الشيخ حفظه الله.

وأما كتاب التوحيد لابن خزيمة فربما تكلمنا عليه في فرصة أخرى.

صور من كتاب «نقض الدارمي»
وما يقابلها من ردود العلماء على المجسمة

طبع في الآونة الأخيرة هذا الكتاب بتحقيق وعلى نفقة رأس طائفة المجسمة المسمين «جماعة أنصار السنة المحمدية» وهو رابع كتاب ينشر بمصر لترويج هذه البضاعة الزائغة، والدعاية إلى عقيدة التجسيم الزائغة باسم نصر السنة المحمدية.

وفي مقدمة النشر يقول رأس الجماعة، في الحطِّ من شأن كتب علم الكلام الجامعة لمذهب الأشاعرة والماتريدية «ودعوها كتب العقائد والتوحيد، وهي في الواقع إنما وضعت ـ عن جهل أو علم ـ لزلزلة العقائد، والتشكيك في الله».

ويقول: «ولقد عمَّ الشر والبلاء بهذه الكتب المشككة في الله وفي صفاته التي اختارها ـ وهو الحكيم الخبير ـ ووصف بها نفسه في كتابه العربي المبين، ووصفه بها رسوله الذي ما ضلَّ وما غوى، وما ينطق عن الهوى».

ويقول في التنبيه من شأن كتاب الدارمي وتقريظه: «وبعد فهذا كتاب (النقض على بشر المريسي) تأليف الإمام الحجة المحدث الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي الذي يقول فيه الإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية: «وكتاباه ـ أي هذا وكتاب الرد على الجهمية ـ من أجلِّ الكتب المصنفة في

السنة وأنفعها، وينبغي لكل طالب سنة مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية، ويعظمهما جداً، وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما».

«وأثنى على كتابه هذا كثير من أئمة السلف، وقرظوه بعبارات فخمة، وهو في الواقع كما قالوا، لولا أنه أتى فيه ببعض ألفاظ، دعاه إليها عنف الرد، وشدة الحرص على إثبات صفات الله وأسمائه التي كان يبالغ بشر المريسي الضال المارق وشيعته في نفيها، غير أنه كان الأولى والأحسن ألا يأتي بها، وأن يقتصر على الثابت من الكتاب والسنة الصحيحة كمثل: الجسم، والمكان، والحيز، فإني لا أوافقه عليها، ولا أستجيز إطلاقها، لأنها لم تأت في كتاب الله، ولا في سنة صحيحة» إلخ هذا بعض ما في مقدمة النشر لشيخ الجماعة، وهو والجماعة جميعاً موافقون على ما في هذا الكتاب إلا بعض ألفاظ كإثبات الجسم، والمكان، والحيز لله تعالى كأن الأولى في نظرهم والأحسن فقط عدم عدها في باب الأسماء والصفات أي لأنها لم ترد بألفاظها، في الكتاب والسنة، ويوضح اتجاهه هذا واتجاههم معه أنه كتب على قول الدارمي: «وهو لا يعرف مكان واحده» أي إلّهه هذه العبارة بنصها: «كان خيراً لو قال «أين» ولم يقل «مكان».

فمن الخيرية والأولية فقط عنده الاقتصار على لفظ «أين» الوارد في السنة، وغاب عن ذهنه أن «أين» يستفهم بها عن المكان فلا فرق إذن بين التعبير بها أو بمرادفها، والدارمي يثبت لله الجسم والمكان والجهة والحيز، ويثبت أن الله تعالى

يحس بالحواس الخمس، ويبالغ في إثبات الظواهر كلها سواء وردت بألفاظ أو بمرادفاتها أو أخذت بطريق اللزوم، فالعبرة عنده بالمعاني لا بخصوص الألفاظ، وسيتضح ذلك جلياً فيما سنضمه تحت أنظار القراء من نصوص كتابه هذا التي سنقابلها بغيرها من نصوص العلماء المحرَّرة في الرد على المجسِّمة.

وقد وجدنا «شيخ الجماعة» نفسه فسر الاستواء على العرش بالاستقرار، ووقَّع في ذيل مقال له بهذه العبارة: «وكتبه المفتقر إلى عفو ربه المستوي بذاته على عرشه محمد حامد الفقي» فالاستواء بالذات، والاستقرار على العرش كل منهما يقتضي التشبيه لا محالة، ومن العجب أن يثبت هؤلاء الاستقرار، الاستواء بالذات والحيز والجهة، ويقولون: إن هذه الأمور وغيرها من المتشابه لا تقتضي تشبيهاً ولا تمثيلًا، وهو جمع بين الشيء وضده، ولا يجتمع تجسيم وتشبيه، مع تقديس وتنزيه إلا في عقول اصطلح عليها الضدان، واجتمع فيها المتناقضان، فكأنهم يقولون: إن الله مستقر بذاته على عرشه مستو بذاته عليه ثابت له المكان والحيز والجهة فهو إذن جسم، ويقولون مع هذا بتنزهه عن الجسمية والمثلية، وعن المكان والجهة إلى غير ذلك فهو إذن ليس بجسم فيؤول كلامهم إلى أنه جسم ليس بجسم.

وهم يودون لو ذهبت كتب علم الكلام كلها في خبر كان، وبقي كتاب الدارمي وبضعة كتب أخرى على غراره حشرت فيها المتشابهات المتعلقة بالأسماء والصفات حشراً، ويتمنون لو حلت محل الكتب المدونة في علم الكلام على طريقة الأشاعرة والماتريدية، وضياع ذلك التراث الخالد، وذهبت نتائج قرائح العلماء كلهم ضياعاً.

فلننظر إذن إلى ما في كتاب الدارمي، ولنعرض صوراً منه على أنظار القراء، ونقابلها بنقائضها من كلام العلماء، وهذا ما يوضح لك مقصد «الجماعة»، ويبيِّن لك حقيقة معتقدهم، ويحدِّد لك طريق اتجاههم، فانظر إذن وتأمل ولا تنزعج!!

في «ص٢٠» يقول الدارمي مخاطباً معارضه ما هذه صورته: «وأما دعواك أن تفسير «القيوم» الذي لا يزول من مكانه فلا يتحرك، فلا يقبل مثل هذا التفسير إلا بأثر صحيح، مأثور عن رسول الله ﷺ أو عن بعض أصحابه أو التابعين لأن الحي القيوم يفعل ما يشاء، ويتحرك إذا شاء وينزل ويرتفع إذا شاء، ويقبض ويبسط؛ ويقوم ويجلس إذا شاء لأن إمارة ما بين الحي والميت التحرك، كل حيٍّ متحرِّك لا محالة، وكل ميت غير متحرك لا محالة» انتهت عبارة الدارمي وكتب الشيخ حامد الفقي في ذيل الصحيفة على هذه العبارة ما نصه: «هذه ألفاظ لم ترد في القرآن ولا في السنة، فنتوقف عن وصف الله بها» وكأنه إذا وجد هذه الألفاظ في القرآن والسنة لم يتوقف عن وصف الله بها على نحوما وصفه بها إمامه الدارمي.

وكأن الأستاذ يغالط نفسه ويتجاهل أن المجسمة يثبتون الحركة بنحو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وبأحاديث منها ما رواه الدارمي في كتابه هذا بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، قال: فيقول المؤمنون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربُّنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه».

ويثبتون النزول بحديث: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا» الحديث.

ويثبتون الجلوس والقعود بمثل ما رواه الدارمي بسنده إلى عبد الله بن خليفة قال: «أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب فقال: إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه إلا قدر أربع أصابع، ومد أصابعه الأربع، وإن له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد إذا ركبه من يثقله».

فهذه الآيات والأحاديث هي التي اعتمد عليها الدارمي في إثبات الحركة والنزول والجلوس، وقد مرت على الأستاذ، وهو يباشر طبع الكتاب فكيف يقول: إنه يتوقف عن وصف الله بها زاعماً أنها لم ترد في القرآن ولا في السنة؟

ها هي ذي قد مرت به مراراً وتكراراً على أنه لا ينكر أنه وصف الله بالاستواء، وفسره بالاستقرار الذاتي، كما لا ينكر أن هذه الظواهر حين مرت به في مواضعها من كتاب الدارمي لم يؤولها بما يصرفها عن ظاهرها، ولم يعلق عليها بكلمة واحدة فهو والدارمي سواء حيال هذه الألفاظ ما في ذلك شك وإلا كان من المؤولة فيكون من نفاة وجود الله!!

ثم بإزاء هذه الصورة المعروضة على أنظار القراء من كتاب الدارمي ومقدمته أضع في مقابلتها صورة أخرى مما أنقله من كتاب «العواصم من القواصم» لإمام من أئمة الحديث هو القاضي أبو بكر بن العربي قال: (ج٢ ص١٧) قاصمة: وقد بينا في غير موضع أن الكائدين للإسلام كثير، والمقصرون فيه كثير، والمشتغلون قليل، فمن كاده (الباطنية) وقد بيَّنا جملةً من

أحوالهم، وممن كاده (الظاهرية) وهم طائفتان إلى أن يقول: يقولون: إن الله أعلم بنفسه وصفاته وبمخلوقاته منا، وهو معلمنا، فإذا أخبرنا بأمره آمنا به كما أمر، وقالوا حين سمعوا ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ و«ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا» إنه يتحرك وينتقل، ويذهب من موضع إلى موضع، ولما سمعوا قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ قالوا: إنه جالس عليه متصل به، وإنه أكبر بأربع أصابع إلى أن يقول: وقالوا: إنه يتكلم بحرف وصوت، وعزوه إلى أحمد بن حنبل، وتعدَّى بهم الباطل إلى أن يقولوا: إن الحروف قديمة، وقالوا: إنه ذو يد وأصابع وساعد وذراع وخاصرة وساق ورجل يطأ بها حيث شاء، وإنه يضحك ويمشي ويهرول، وأخبرني من أثق به من مشيختي أن أبا يعلى محمد بن الحسن رئيس الحنابلة ببغداد كان يقول إذا ذكر الله تعالى، وما ورد من هذه (الظواهر) في صفاته يقول: ألزموني ما شئتم فإني التزمه إلا اللحية، والعورة، وانتهى بهم القول إلى أن يقولوا: إن أراد أحد أن يعلم الله فلينظر إلى نفسه، فإنه الله بعينه، إلا أن الله منزه عن الآفات، قديم لا أول له، دائم لا يفنى، لقول النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»، وفي رواية: «على صورة الرحمن»، وهي صحيحة، فللَّه الوجه بعينه لا ننفيه ولا نتأوله إلى محالات لا يرضى بها ذو نُهى.

وكان رأس هذه الطائفة بالشام أبو الفرج الحنبلي بدمشق، وابن الرميلي المحدث ببيت المقدس، والقطرواني بنواحي نابلس، والفاخوري بديار مصر، ولحقت منهم ببغداد أبا

الحسين بن أبي يعلى الفراء، وكل منهم ذو أتباع من العوام جماً غفيراً. عُصْبة عصيَّةٌ عن الحق، وعصبية على الخلق، ولو كانت لهم أفهام، ورزقوا معرفة بدين الإسلام، لكان لهم من أنفسهم وازع، لظهور التهافت على مقالاتهم، وعموم البطلان بكلماتهم، ولكن الفدامة استولت عليهم، فليس لهم قلوب يعقلون بها، ولا أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل اهـ. هذا كلام الإمام أبي بكر بن العربي في الجزء الثاني من «العواصم» من ص١٧ ـ ٢٠.

كتاب التوحيد لابن خزيمة

الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة مؤلف هذا الكتاب المتوفى سنة ٣١١هـ من كبار الحفاظ المبرزين في نقد رجال الحديث، ومعرفة متونه وعلله، وقد خاض في كتابه هذا كبعض الحفاظ من علماء التحديث وأهل الأثر في تفسير الآيات والأحاديث المتشابهة، ولكونه لم يكن من المحسنين في فن الكلام على طريقة المتكلمين في أصول الدين وتقرير العقائد إحسانه في فنون الحديث، قال في ذات الله وصفاته بما أنكره عليه علماء هذا الشأن، وبما كان حليفه فيه الخطأ وخطل الرأي وغلط الفهم، لأنه التزم في كل ما تكلم عليه من هذه الأسماء والصفات الوقوف عند ظواهر المتشابه وفهم مفرداتها اللغوية فهماً سطحياً عامياً ووصفها بما تعطيه هذه المفردات من المعاني الحسية الظاهرة بدون اقتصار على الإيمان بأصلها المعلوم من الكتاب والسنة والتفويض أو التأويل في وصفها المتشابه وكيفيتها المجهولة، لأن التأويل عنده وعند من نحا نحوه وجرى على أصله هو عين النفي والتعطيل، والجري على هذا الأصل وهو عدم تأويل الظواهر مطلقاً، وتحديد معانيها بما يفهم من اللفظ عند الإطلاق بدون تأويل ولا تفويض مسلك شائك يجرُّ إلى مزالق ومزال يجب الكشف عنها وبيان وجه الصواب فيها.

ومما لا ريب فيه أن محاولة إدراك كثير من هذه المعاني

على ظواهرها دون تفويض ولا تأويل هي في الحقيقة محاولة لإدراك كنه الذات وحقيقة الخالق جل وعلا، وهو ما لا نصل إليه بعقولنا وأفهامنا، لانحصار مداركنا في محيطٍ من العالم الحسي بجعلنا لا نستطيع أن ننفذ بأنظارنا الكليلة، وعقولنا المحدودة إلى ما وراء حجب الغيب المحيطة بجلال قدسية الذات الأقدس، تقدست أسماؤه، وتعالت صفاته.

وهناك أحاديث كثيرة دلت على استحالة معرفة ذاته تعالى بالكنه منها قوله عليه الصلاة والسلام: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك».

وقوله: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا».

وقوله فيما أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرونه قدره».

وقوله: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته».

ومن كلام المرتضى رضي الله عنه.

العجز عن دَرَك[1] الإدراك إدراك   والبحث عن كنه ذات الله إشراك

والشطر الأول من هذا البيت الفذ تضمين لقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «العجز عن درك الإدراك إدراك» وإذا كان

(١) دَرَك (بفتحتين) والمعنى عجز العقول عن الوصول إلى آخر درك وعمق لإدراك الذات، وأقصى حد لفهم حقيقتها هو عين الإدراك لأن من فهم أن العقول عاجزة عن إدراك كنهه تعالى وأن ذلك ممتنع في حقه تعالى دون ما سواه فقد أدرك الحقيقة، ووصل إلى الفهم الصحيح، ولم يقع فيما وقع فيه الباحث المفتش عن كنه الذات من جهل وظلم وإشراك.

اكتناه حقيقة الذات ومحاولة إثبات المتشابه بوصفه المفهوم من اللفظ عند الإطلاق وكيفيته المجهولة لنا، ليس في مقدور أحد فضلًا عن أنه يفضي إلى إثبات الجهة والمكان والأجزاء والأبعاض لله تعالى كان المذهب الحق في المتشابه أحد وجهين:

إما الإيمان بأصلها الثابت في الكتاب والسنة مع تفويض علم المراد منها إلى علام الغيوب بدون تحديد وتعريف، وتوصيف وتكييف وهذا هو مذهب السلف.

وإما الإيمان بالأصل الوارد وصرفه عن معناه الظاهر بضرب من التأويل لا تأباه العربية، ولا يخرج عن قانون اللغة التي نزل بها القرآن، وهذا هو مذهب الخلف.

وقد أشار فضيلة المفتي الأكبر في حديث له مع الأستاذ الههياوي صاحب جريدة المنبر إلى المذهب الحق في المتشابه، قال: فكان الذي سمعته من فضيلته تقرير مذهب السلف من «إرجاع الأمر بالمتشابهات إلى علم الله تعالى مع التنزيه المطلق، ومع الإيمان بانتفاء كل مماثلة للحوادث، وأن ما عدا ذلك ليس من الدين في شيء».

وسنرى أن ابن خزيمة في كتاب «التوحيد» بناء على أصله من عدم صرف الظواهر عن معناها، ولو أدى ذلك إلى مماثلة ذات الله تعالى للحوادث سيخرج عن المذهبين جميعاً: مذهب السلف، ومذهب الخلف.

ثم إن تأويل بعض المتشابهات، وصرف بعض الظواهر عن معناها أمر لا بد منه، وبيان ذلك على ما ذهب إليه الإمام فخر الإسلام: أنه ورد في القرآن ذكر الوجه والعين والجنب الواحد

والأيدي والساق الواحدة، فلو أخذنا بظاهر هذه النصوص للزم إثبات إله له وجه وعلى ذلك الوجه عدة أعين، وله جنب واحد، وعليه أيد كثيرة كل يد منها يمين، وله ساق واحدة، ولا نرى صورة أقبح من هذه الصورة المتخيلة، ولا يرضى عاقل أن يصف ربه بهذه الصفة المشوهة.

وأنه ورد أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ومعلوم بالبداهة أن إله العالم ليس هو هذا الشيء المنبسط على الجدران والحيطان، وليس هو هذا النور المنبعث عن جرم الشمس والقمر والكواكب والنيران، وإذن فلا يمكن إرادة المعنى الظاهر من لفظ المتشابه، ولا بد من صرف اللفظ المتشابه إلى معنى آخر بأن يقال: الله منوِّر السموات والأرض أو الهادي بجميع أنواع الهدايات لأهل السموات والأرض.

وكذلك لا بد من التأويل في مثل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ وقوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فإن المعية هنا معية المعونة والحفظ والعلم والرحمة.

وكذلك لا بد من التأويل في مثل قوله عليه السلام: «الحجر الأسود يمين الله» وقوله حكاية عن ربه: «من أتاني يمشي أتيته هرولة» فإن المراد منه التمثيل والتصوير لا المشي الحقيقي والهرولة الحقيقية.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» وهذا أيضاً لا بد فيه من التأويل لأنا نعلم بالضرورة أنه ليس في صدورنا إصبعان بينهما قلوبنا.

فثبت بهذا ونظائره أنه لا بد من المصير إلى التأويل حتماً في كل ما يوهم ظاهره المماثلة للحوادث، لما ثبت بالدليل القاطع أنه سبحانه وتعالى منزَّه عن الجهة والجسمية، وإذا لم نصر إلى التأويل فما علينا إلا أن نسلك مسلك السلف، بأن نؤمن بظواهر هذه النصوص الواردة إجمالًا ونكل تفصيل علم المراد منها إلى علَّام الغيوب سبحانه وتعالى.

وقد نقل المرجاني في حاشيته على شرح جلال الدين الدواني أن الإمام الرازي فخر الإسلام رحمه الله قال: إثبات اليد والوجه حق عندنا، لكنه معلوم بأصله، متشابه بوصفه، ولن يجوز إبطال الأصل بالعجز عن درك الوصف بالكيف، وإنما ضلت المعتزلة، فإنهم ردوا الأصول، لجهلهم بالصفات على الوجه المعقول، فصاروا معطلة اهـ.

ويعلم منه أن إثبات الأسماء والصفات بأصلها الوارد في الكتاب والسنة، وإن عجزنا عن درك وصفها المتشابه، وكيفها المجهول هو المذهب الحق عند المتكلمين.

وبعد هذا التمهيد والمقدمات ـ أنقل لك فصولًا من كلام ابن خزيمة في كتابه المسمى كتاب «التوحيد» لتعلم منه أن الحفظ والتحديث غير الفقه وفهم الأحاديث، وغير معرفة أصول الدين، وتقرير عقائد التوحيد.

ففي (ص١٦) ما نصه: «نحن نقول وعلماؤنا جميعاً في الأقطار إن لمعبودنا عز وجل وجهاً كما أعلمنا الله في محكم تنزيله فذواه بالجلال والإكرام، وحكم له بالبقاء، ونفى عنه الهلاك، ونقول إن لوجه ربنا عز وجل من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره».

وفيها: «ونقول: إن لبني آدم وجوهاً كتب الله عليها الهلاك، ونفى عنها الجلال والإكرام غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء التي وصف الله بها وجهه يدرك وجوه بني آدم أبصار أهل الدنيا، لا تحرق لأحد شعرة فما فوقها لنفى السبحات عنها» إلخ.

وفيها: «فهل يخطر ـ يا ذوي الحجا ـ ببال عاقل مركب فيه العقل يفهم لغة العرب، ويعرف خطابها، ويعلم التشبيه أن هذا الوجه شبيه بذاك الوجه، وهل ها هنا ـ أيها العقلاء ـ تشبيه وجه ربنا جل ثناؤه الذي هو كما وصفنا وبينا صفة من الكتاب والسنة بتشبيه وجوه بني آدم التي ذكرناها ووصفناها غير اتفاق اسم الوجه، وإيقاع اسم الوجه على وجه بني آدم كما سمى الله وجهه وجهاً، ولو كان تشبيهاً من علمائنا لكان كل قائل: إن لبني آدم وجهاً وللخنازير والقردة والكلاب والسباع والحمير والبغال والحيات والعقارب وجوهاً قد شبه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب وغيرها» إلخ.

وفي (ص٥٦ ـ ٥٧) فكيف يكون ـ يا ذوي الحجا من وصف يد خالقه بما بينا من القوة والأيد، ووصف يد المخلوقين بالضعف والعجز مشبهاً يد الخالق بيد المخلوقين؟ أو كيف يكون مشبهاً من يثبت لله أصابع على ما بينه المصطفى ﷺ للخالق البارئ، ويقول: «إن الله جل وعلا يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع»... ويقول: إن جميع بني آدم إلى أن ينفخ في الصور لو اجتمعوا على إمساك جزء من أجزاء كثيرة من سماء من سماواته أو أرض من أراضيه السبع بجميع أبدانهم كانوا غير قادرين على ذلك، ولا مستطيعين له بل عاجزين عنه إلى أن يقول: فأي تشبيه ضر أصحابنا ـ أيها العقلاء ـ إذ أثبتوا للخالق ما

أثبته الله لنفسه، وأثبته له نبينا ﷺ اهـ المراد نقله من كتاب «التوحيد» لابن خزيمة.

ونحن بإزاء هذه الظواهر كما أسلفنا لك في هذا البحث على أصلنا الذي جرى عليه جمهور المتكلمين من الإيمان بالنص الوارد في الكتاب والسنة مع العجز عن بيان المراد منه بوصف أو كيف، وأمام هذا العجز الذاتي اللازم لذواتنا لقصور عقولنا عن إدراك كنه الذات، وحقيقة الصفات. إما أن نسلم ونفوِّض ونكلُ علم ذلك إلى الخالق جل وعلا، وإما أن نؤول إن أمكن التأويل، ومع هذا فلا يكون تأويلنا نصاً في مراد الله تعالى الذي غيَّبه عن عقولنا، بل يكون اجتهاداً منا في فهم معنى المتشابه أصاب المجتهد فيه أم أخطأ، وابن خزيمة يجرى على أصله في إثبات المعنى اللغوي لهذه الألفاظ المتشابهة ولا شك أن إثبات المعنى اللغوي المفهوم من الوجه واليد والعين والأصابع وغيرها معناه إثبات الجوارح والأعضاء والأجزاء والأبعاض لله سبحانه وتعالى، وهذا هو عين التشبيه، ولا يغنيه بعد ذلك أن يقول: إن الوجه واليد والعين في الخالق تمتاز بصفات وخصائص لا توجد في نظائرها من المخلوقين فلا تشبيه.

على أني أترك الكلام الآن للإمام فخر الدين الرازي، ولا أقول «رازيهم» كما يقول «الشيخ النجدي» متندراً متظرفاً، بل أقول يكفي أن نسمع الآن ما يقول الإمام فخر الإسلام في الحافظ ابن خزيمة:

قال في تفسير قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ من سورة الشورى «ص٢٦٤ ج٧» احتج علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأعضاء والأجزاء،

وحاصلًا في المكان والجهة، وقالوا: لو كان جسماً لكان مثلًا لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له، وذلك باطل بصريح قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر: فيقال: إما أن يكون ليس كمثله شيء في ماهيات الذات، أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شيء، والثاني باطل، لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع أن الله يوصف بذلك، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسماً لكان كونه جسماً ذاتاً لا صفة، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية أعني في كونها متحيِّزة طويلة عريضة عميقة، فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتاً، والنص ينفي ذلك، فوجب ألا يكون جسماً، واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بالتوحيد وهو في الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها، وأنا ذاكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات لأنه كان رجلًا مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل، وبعد أن ذكر نحواً مما ذكرناه لك آنفاً قال: وذكر (يريد ابن خزيمة) في فصل آخر من هذا الكتاب أن القرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه في صفات كثيرة، ولم يلزم منها أن يكون القائل بها مشبهاً فكذا ها هنا، ونحن نعد الصور التي ذكرها على الاستقصاء.

فالأول: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقال في حق الإنسان ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

الثاني: قال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ وقال في حق المخلوقين: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾.

الثالث: قال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وقال في حق المخلوقين: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾.

الرابع: قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾

وقال في حق المخلوقين: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

الخامس: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، وقال في الذين يركبون الدواب: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ وقال في سفينة نوح: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾.

السادس: سمى نفسه عزيزاً فقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾.

السابع: سمى نفسه بالملك، وسمى بعض عبيده أيضاً بالملك فقال: «وقال الملك ائتوني به» وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

وسمى نفسه بالجبار المتكبر، وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

ثم طول في ضرب الأمثلة من هذا الجنس، وقال: ومن وقف على الأمثلة التي ذكرناها أمكنه الإكثار منها فهذا ما أورده هذا الرجل في هذا الكتاب.

وأقول: هذا المسكين الجاهل إنما وقع في أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف المثلين، وعلماء التوحيد حققوا الكلام في المثلين، ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية. فنقول: المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول: المعتبر في كل شيء. إما تمام ماهيته، وإما جزء من أجزاء ماهيته، وإما أمر خار ج ماهيته، ولكنه يكون من لوازم تلك الماهية، وإما أمر خارج عن ماهيته، ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية، وهذا التقسيم مبنى على الفرق بين ذات الشيء، وبين الصفات القائمة به، وذلك معلوم بالبديهة، فإنا نرى الحبة من الحصرم كانت في غاية الخضرة والحموضة، ثم صارت في غاية السواد والحلاوة، فالذات باقية والصفات مختلفة، والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة، وأيضاً نرى الشعر قد كان في غاية السواد ثم صار في غاية البياض، فالذات باقية، والصفات متبدلة، والباقي غير المتبدل، فظهر بما ذكرنا أن الذوات مغايرة للصفات، إذا عرفت هذا فنقول الأجسام التي تألف منها وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس، وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهي الألوان والأشكال والخشونة والملامسة، وحصول الشعور فيه وعدم حصولها، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة إلا أن العوام لا يعرفون الفرق

بين الذوات وبين الصفات، فلا جرم يقولون إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار، ولقد صدقوا فإنه حصلت تلك المخالفة بسبب الشكل واللون وسائر الصفات، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية، فثبت أن الكلام الذي أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام، وما كان يعرف أن المعتبر في التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها إلخ ما أورده الفخر الرازي هنا.

ويكفي هذا القدر في تحليل كتاب ابن خزيمة وبيان ما احتوى عليه من مغالطات وجهالات، فكيف يكون بمثل هذا الكتاب متمسك للخصوم.

صورة فتوى لمشيخة الأزهر في عهد المغفور له الشيخ أبي الفضل الجيزاوي عن كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية» وما جاء فيه من رأي المشبهة

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾

القول في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية المعزو إلى ابن قيم الجوزية الذي رفع إلى مشيخة الأزهر لإبداء رأيها فيه وها هو:

هذا الكتاب وضعه مؤلفه ابن القيم تأييداً لرأيه ورأي شيخه ابن تيمية في موضوع المتشابه من القرآن والسنة، حيث أوجبا الإيمان بظاهر ما ورد من ذلك مهما كان مخالفاً لمقتضى العقل السليم، ومهما كان صريحاً في التشبيه والتجسيم، مخالفين في ذلك اجتماع الأمم الإسلامية واتفاق العلماء أجمعين على أن أصول العقائد وقضايا الإلهيات إنما تؤخذ من البراهين العقلية، وأن العقل والنقل إذا تعارضا في شيء من ذلك قدِّم العقل لأنه أساس الإيمان بالنقل، وقد قام البرهان العقلي على وجوب تنزُّهه تعالى عن مشابهة الحوادث، لأنه لو شابه شيئاً منها لكان حادثاً مثلها وهو محال. وجاءت نصوص الشرع كلها مؤيِّدة لهذه

العقيدة إلا قليلًا من الآيات والأحاديث النبوية جاءت موهمة للتشبيه في ظاهرها، فوجب إحالتها عن ذلك الظاهر رجوعاً بها إلى مقتضى العقل الصحيح وإلى باقي أخواتها من نصوص الآيات والأحاديث المحكمة التي توجب التنزيه.

والعلماء في ذلك على قسمين: سلف الأمة وخيرتها الذين لم يتكلموا في ذلك بغير التفويض في علم المراد بذلك على وجه التعيين مع اعتقاد التنزيه وشددوا النكير على من سأل في ذلك وخاض في تلك المهالك، وكان الجواب بالتفويض في ذلك العهد من أمثال هؤلاء الأئمة فيه مقْنعٌ للسائل لتمكن سلطان الإيمان في القلوب إذ ذاك.

ثم جاء الخَلَف وقد كثر الملحدون والذين في قلوبهم زيغ وتشبثوا بمواطن الاختلاف والمتشابه من ذلك وكان الجواب بالتفويض لا ينقع لهم غلة، ولا يشفى لهم علة، وكانت أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن وجاء بها الرسول قد دونت علومها، وبينت أسرارها فلم تضق ذرعاً بدواء ذلك المرض بالجواب العلمي الشافي القاطع لشأفة المجادلين في هذه الآيات ونحوها من الأحاديث. ووجدوا لذلك نظائر لا تخفى في كلام العرب الذين جاء القرآن بلسانهم فأوّلوا كل موطن من هذه الآيات والأحاديث بما يليق به مما يناسب المقام من وجوه البيان وعلى طرقه المقررة في علومه شأن عملهم في سائر الكلام العربي غير الكتاب والسنة.

ولكن خالف في ذلك أبو العباس أحمد بن تيمية وتلميذه ابن القيم وطائفة ممن معهم، وقاموا بغارة شعواء على الخلف المؤولين، وأفرطوا في إيجاب التمسك بظاهر ذلك حتى كأن

القرآن والسنة لم يرد عندهم على مناهج اللغة العربية وأساليبها المعهودة، وحتى أفرطوا في كثرة الجدال في ذلك وجمع النقول والروايات الواهية التي لا يؤخذ بأمثالها في الفروع فضلًا عن تلك الأصول كما فعل ابن القيم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» هذا الذي أفرده للخوض في هذا الموضوع خاصة مع نقله عن السلف الصالح تحريم الخوض في ذلك.

وليت شعري إذا كان السؤال والبحث عن آية واحدة أو حديث من ذلك بدعة، كما جاء ذلك عن السلف رضي الله عنهم ونقله هؤلاء أنفسهم فماذا يكون إفراد ذلك بوضع المؤلفات، وتحرير الأسفار والمجلدات، فقد وقعوا فيما يحذرون وصار عليهم حجة ما يلبسون.

وإذا كان هذا شأن كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية» المذكور فيجب عدم نشره بين الناس لأن كثيراً ممن لا تحقيق عنده ولا غوص له في علوم المنقول، وفيما قرره العلماء في أصول العقائد وأدلتها إذا قرأ هذا الكتاب لا يكاد يخرج منه إلا وهو معتقد التجسيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وذلك بسبب ما يحدثه توالي هذه الأدلة بعضها إثر بعض على ذهنه، وما فيها من بعض الروايات الواهية الكثيرة التصريح بالتشبيه مع نزولها عن درجة الاستدلال بها في مثل هذا المقام، ومصادمتها للمعقول والمنقول من أدلة التنزيه التي هي أم الكتاب والتي يجب إرجاع ما عداها إليها.

ولله درُّ بعض العلماء حيث يقول بتحريم جمع المتشابه وضمِّ بعضه إلى بعض لهذا الأثر السيء الذي بينا، ولأنه أيضاً لم يجيء في الشرع إلا مفرقاً في مواطن مختلفة، وحيث وجب علينا

الوقوف على حده وحرم أن نقول عليه تعالى شيئاً من ذلك لم يرد فكذلك يجب بقاؤه مفرقاً على الصفة التي جاء بها، وفي المواطن التي جاء فيها من الكتاب أو السنة.

وقد قرر ذلك حجة الإسلام الغزالي وأنكر شديداً على من جمع المتشابه من بعضه إثر بعض وانتزعه من مواطنه في الكتاب والسنة، وأفاض في ذلك في كتاب «إلجام العوام».

هذا ولقد ردَّ كثير من العلماء على ابن تيمية وابن القيم في ذلك، وكتب التوحيد والتفسير والحديث فائضة بذلك على أن الأمر واضح جداً فإن الجهة تستلزم الجسمية، والجسمية تستلزم الحدوث، ولئن قالوا بجهة الفوق تمسكاً بمثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إلى آخر ما قالوا لكان من الواجب أن يردهم من ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر ما جاء من النصوص التي لا يقصد بها إلا الإحاطة العامة، وبيان أن الأشياء كلها بالنسبة إلى ربوبيته الشاملة على السواء.

ولا معنى لأن يقولوا بالفوقية على معناها الظاهر منها، ثم يؤولوا في المعية وبقية النصوص، ولا شك أن هذا تحكّم.

والمقصود من تلك النصوص كلها وراء ما فهموه من ظاهرها، لأن هذا الظاهر يخالف المعقول والمنقول جميعه لدى من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وليس ينكر تنزه الباري عز وجل عن الجسمية ولوازمها إلا من غلظ حجابه وضعفت روحانيته وكثفت جسمانيته حتى لم

يستطع أن يفهم أن وراء الأجسام، وفوق الجهات من يتعالى عنها، ويجب أن يبرأ منها مع أن كثيراً من علماء الكلام والتصوف والفلسفة يثبتون ذلك للجواهر المجردة الحادثة فضلًا عن الباري عز وجل.

وبوجه آخر من البيان نقول: إنه لا مخلص لهم من إحدى ثلاث: إما أن يكونوا قائلين بالتنزيه عن الجسمية ولوازمها فنكون معهم ويكونوا معنا ولا داعي لطول الجدال وكثرة القيل والقال، وإما أن يقولوا بالجهة التي تستلزم الجسمية والتحديد لا محالة وينسوا اللازم والملزوم جميعاً فيكونوا قد خرجوا عن الدين، ومرقوا من زمرة المسلمين، وحاشا أن يكونوا كذلك.

وإما أن يقولوا بما يستلزم الجسمية مع كونهم ينقونها، وحينئذ يكونون قد تكلموا بما لا يفوه به العقلاء فتسقط مكالمتهم ولا تجوز محاورتهم.

هذا وكتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية»[1] لا نعلم نسبته إلى ابن القيم على القطع، فربما كان مدسوساً عليه من بعض ذوي الأهواء الضالة، والله يتولى هدى الجميع.

---

(١) لا بل هو صحيح النسبة إليه، وقد حقِّق قريباً، وصدر عن إحدى المكتبات.

شرح معنى الاستواء
المطابق للبلاغة والتوحيد

ويليه:

مغالطات القصيمي

للأستاذ الباحث المهندس حامد عبد الرحمن

شرح معنى الاستواء
المطابق للبلاغة والتوحيد[1]

لحضرة الباحث المفضال حامد بك عبد الرحمن باشمهندس الري سابقاً

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأعراف].

قبل الشروع في بيان المفهوم من الآية الشريفة نضرب مثلًا في المخلوقات، ولله المثل الأعلى بصفة تمهيد لتقريب المعنى للعقول فنقول وبالله تعالى التوفيق والإعانة:

إننا إذا كلفنا مهندساً ميكانيكياً بعمل مكينة فإنه يقوم بعملها وتركيبها خير قيام، ولكن إذا كلفناه بتشغيلها فقد يعجز إذا لم يكن كفواً لذلك العمل.

وإذا كلفنا غيره بتشغيلها ممن لهم خبرة بذلك فإنه يقوم بالمأمورية خير قيام، ولكن إذا كلفناه بإنشاء مثلها عجز إذا لم يكن كفؤاً لذلك العمل أيضاً.

كما أنه قد لا يمكنه إصلاح عيوبها إذا تعطلت لأنه لم يكن

---

(١) مقالان نشرا في السنة الثالثة، عدد (١٢) وعدد (١٦) سنة ١٣٥٤ = ١٩٣٥.

مباشراً لتركيبها، فلأجل الحصول على إنشاء مكينة تشتغل بانتظام مع ضمان عدم تعطيلها يجب تكليف مهندس آخر أكفأ منهما ليقوم بالإنشاء والتركيب والتشغيل جميعاً.

فالأول والثاني كلاهما ناقص الخبرة والكفاءة والثالث أكمل منهما وهو الذي يصح أن يطلب منه هذا العمل مع الاطمئنان لأنه لا يقوم به غيره.

إذا علمت هذا فالمفهوم من الآية لأول وهلة أنه تعالى خلق السموات والأرض ـ ثم دبَّرها وأمرها بما أراده منها فصارت مسخَّرة بأمره ـ فله الخلقُ والأمرُ، وهذا دليل على تمام القدرة وإذن يجب أن يفهم من الاستواء المعنى المطابق لذلك مع ملاحظة البلاغة وقواعد اللغة.

فنقول وبالله التوفيق:

أولًا: حيث أن كلمة (خلق) فعل حادث فما عطف عليه (بثم) حادثٌ أيضاً، والحادث لا يكون صفة لذات القديم جل وعلا.

ثانياً: يجب أن يفهم من (استوى) المعنى الذي يصح أن يكون متأخراً عن خلق السموات والأرض وليس ذلك إلا الكناية عن تدبير الملك فحسب اصطلاح اللغة يقال: استوى فلان على سرير الملك كناية عن قيامه بتدبير المملكة وإن لم يكن هناك سرير، وبذلك يكون المفهوم من (استوى) بمعنى (قام بتدبير المخلوقات) مناسباً لخلق السموات والأرض ومرتباً عليه، لأن التدبير لا يكون إلا بعد الخلق، ويؤيِّد لك ما يفهم من قوله تعالى ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ

بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ ولذلك يذكر الاستواء بعد الخلق دائماً.

ويؤكده أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ ﴾ فهو لفٌّ ونشر مرتب فالخلق يشير إلى خلق السموات والأرض، والأمر يشير إلى الاستواء على العرش.

ويؤيد هذا المعنى آية سورة يونس لأن نصها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ ﴾ فذكر التدبير بعد الاستواء هو كالتفسير له.

ثالثاً: أما إذا فهم من (استوى) معنى جلس فينبني عليه جملة استحالات وهي:

أ ـ أن المعنى يكون هكذا (أن الله تعالى خلق السموات والأرض ثم جلس تعالى على العرش) وهذا يستلزم أنه قبل خلق السموات والأرض لم يكن جالساً على العرش؟.

ب ـ فأين كان جالساً؟ وإن لم يكن جالساً على العرش قبل خلقها، فما الداعي لجلوسه تعالى على العرش بعد خلقها، وما العلاقة بين خلقه تعالى لها وبين جلوسه تعالى على العرش فهل لم يكن في إمكانه خلقها إلا وهو تعالى غير جالس على العرش؟

جـ ـ وهل كان العرش خالياً من الجلوس وقت خلق السموات والأرض أم كان مشغولًا بغيره تعالى؟

د ـ وإن كان خالياً فلماذا ـ فهل كان تعالى مستغنياً عن الجلوس عليه؟

هـ ـ وإن كان تعالى مستغنياً عن العرش قبل خلق السموات والأرض فما الذي أوجب احتياجه تعالى إليه؟

و ـ وما الموجب لترتيب الجلوس على العرش على خلق السموات الأرض؟ ولماذا لم يكن الجلوس قبل خلقها؟ فالعقل يقضي بأن الجلوس بمعنى التدبير حاصل من بعد خلقها أما مجرد الجلوس فلا معنى له ولا فائدة.

ز ـ وإن عدم الجلوس أولًا ثم حصوله ثانياً بعد خلقها يستلزم الحركة بعد السكون وهما حادثان فكيف يتصف بهما القديم جل وعلا.

ح ـ إنه لا تعظيم ولا بلاغة في ذكر مجرد الجلوس على العرش بعد خلق السموات والأرض لأنه يدل على حصول تعب استوجب الجلوس على العرش للاستراحة كما أنه ليس مختصاً بالإله ولا مدح فيه.

ط ـ إنَّ جلوس الملوك على العرش ليس جلوساً عادياً ولكنه له معنى خاص بإصدار الأوامر اللازمة لدتبيرهم المملكة، ولذلك يكون جلوسهم مصحوباً بإلقاء خطبة العرش لبيان تدبيرهم.

أما جلوسهم المعتاد فلا يكون على العرش أصلًا حتى ولو جلس على العرش في غير الميعاد المحدَّد لبيان برنامج تدبيره فلا يعبَّر عنه بأنه جالس على العرش كما أن الملك يعتبر جالساً على العرش وإن كان متغيباً في جهات أخرى فهذا الجلوس كناية عن قيامه بالحكم والتدبير.

ي ـ لوكان الجلوس صفة للذات الإلهية لكان قديماً، وهذا يستلزم إما قدم العرش وهذا محال، وإما حدوث الجلوس وحدوث الذات الإلهية وهذا محال أيضاً.

ك ـ إن قيل: إنه تعالى فوق العرش، ولكنه يبعد عنه بمسافة فهذا أيضاً محال لأنه ينافي الجلوس، ولأنه تعالى يكون محمولًا في الفضاء ومحدوداً من أسفله، وهذا يستلزم تحديده تعالى من جميع الجهات لضرورة تماثلها حكماً وهذا كله مستحيل على القديم جل وعلا.

أما من جهة البلاغة فنضع أمام عينك المعنى المفهوم على كلا التفسيرين لكلمة (استوى) لتحكم أيهما اللائق بعظمة الألوهية وبلاغة القرآن العظيم وأيهما المناسب لبيان كمال الألوهية وصفاتها.

أ ـ أما المفهوم من الآية الشريفة على المعنى الأول (لاستوى) يكون كالآتي:

(إن ربكم الله العظيم الذي ليس مثله شيء، والذي لا يعجزه شيء، والذي خلق السموات والأرض في ستة أيام دون أن يمسه لغوب ولا تعب بل قال لهما كونا فكانتا كما أراد، ثم استوى برحمانيته على عرش المملكة وقام بتدبير مخلوقاته وتسخيرها بقدرته وعلمه فصارت مسخرة بأمره ومشيئته، ومن تسخيره تعالى إياها أنه يغشى الليل النهار بقدرته وحكمته فجعله يطلبه حثيثاً وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره، فله تعالى خلقها جميعاً، وله أمرها جميعاً ليس لأحد سواه شأن في كل ذلك فتعالى وتبارك ووسعت رحمته وقدرته وإرادته وعلمه كل ذلك لأنه ربُّ العالمين فكيف يتعب وكيف يحتاج لمعين، وكيف يكون له شريك، ويفهم من الآية التي تليها في السورة، لذلك ادعوا ربكم الرحمن الذي رباكم برحمته ونعمه هذه التي سخرها لكم العظيم المقدس عن صفات الحوادث تضرعاً وخفية، لأنه لا

يستحق دعاء العبودية من العبيد سواه كما لا ربَّ سواه، ولا قادر سواه، ولا غني على الإطلاق سواه ولا قديم سواه.

ب ـ والمفهوم منها على المعنى الثاني (لاستوى) يكون كالآتي:

إن ربكم الله العظيم الذي ليس كمثله شيء والذي لا يعجزه شيء والذي خلق السموات والأرض في ستة أيام دون أن يمسَّه لغوب ولا تعب بل قال لهما كونا فكانتا كما أراد ثم جلس على العرش كما يجلس خلقه بعد أن لم يكن جالساً عليه، وعدم جلوسه عليه يوهم أنه كان تحته مع السموات والأرض التي هي تحت العرش ثم ارتفع إلى العرش فجلس عليه بعد خلق السموات والأرض بكيفية توهم التشبيه بالعامل من الخلق، فإذا تعب من الوقوف في العمل جلس ليستريح.

يغشي الليل والنهار بقدرته وحكمته فجعله يطلبه حثيثاً وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره فله تعالى خلقها جميعاً، وله أمرها جميعاً ليس لأحدٍ سواه شأنٌ في كل ذلك فتعالى وتبارك وَوَسِعَتْ بركتُه ورحمتُه وقدرتُه وإرادتُه وعلمُه كل ذلك لأنه رب العالمين فكيف يتعب وكيف يحتاج لمعين وكيف يكون له شريك).

ويفهم من الآية التي تليها ـ:

لذلك ادعوا ربكم الرحمن الذي رباكم برحمته ونعمه هذه التي سخرها لكم العظيم المقدس عن صفات الحوادث تضرعاً وخفية لأنه لا يستحق دعاء العبودية من العبيد سواه كما لا ربَّ سواه، ولا قادر سواه، ولا غني على الإطلاق سواه، ولا قديم

سواه. فمعنى جلس مناقض لما قبلها وما بعدها من صفات.

جـ ـ فإذا تأمَّلت في التفسيرين وجدت أن معنى كلمة (استوى) في الأول متَّفقة مع سياق التعظيم والتقديس دالة على كبرياء الألوهية وسيطرتها على الممالك، فالاستواء على العرش رمز للسيطرة التامة.

بخلاف معنى (استوى) في التفسير الثاني فإنها اختلفت عما قبلها وما بعدها لفظاً ومعنى لدرجة توجب الحكم بأنها ـ أي جلس ـ ليست من القرآن، وأن معناها يشبه الهذيان والعبث في جميع معانيه مما لا يليق بصفات المخلوق المدَّعي للعظمة والقدرة فكيف بمن هو ربُّ العظمة والكبرياء والعزة والقدرة التي لا نهاية لها والغني المُطْلق وهذا وجه استحالة صحتها من جهة البلاغة أيضاً.

فكل هذه الاستحالات نتجت من فرض معنى (استوى) بمعنى (جلس) فإذاً يجب أن يكون المفهوم منها مناسباً لمعنى تدبير الملك أو معنى آخر يتفق مع ما قبلها وما بعدها، والله تعالى أعلم بمراده.

أما الجلوس الذي يتخيَّله من لم يفهم دقائق اللغة والتقديس والبلاغة فهو خطأ خارج كل الخروج عن قواعد اللغة، وبذلك أرجو أن تزول الشبهة من أذهان الجامدين على الظواهر بدون ملاحظة قواعد اللغة وأصول البلاغة اللائقة بالقرآن العظيم والله الهادي.

المقالة الثانية

في شرح المفهوم من آيات الاستواء على العرش بما يطابق أصول اللغة والتوحيد وبلاغة القرآن العظيم

قد أوضحنا في المقالة الأولى ما يجب فهمه من الاستواء على العرش المذكور في جملة آيات مع خلق السموات والأرض بأن المقصود هو لازم معناه، وهو تدبير المملكة الإلهية وتسخير ما فيها وهو وصف فعلي تأثيره حاصل في السموات والأرض وما فيها لا وصف ذاتي كالعلم والحياة، وأثبتنا أن هذا هو الذي يصح أن ينسب لرب العالمين دون الجلوس والاستقرار على العرش الذي ينبني عليه جملة استحالات عقلية ولغوية فضلًا عن استلزام التناقض بين آيات الاستواء وغيرها. وبينها وبين صفات الجلال والكمال الإلهية وأخصها الفناء المطلق عن كل ما سواه فمهما فرض في الاستقرار من نفي الكيفية فهو استقرار حاصل بعد أن لم يكن، وهذا وحده كاف لاستحالة اتصاف رب العزة والكبرياء والغنى المطلق به ـ فضلًا عن الأدلة العقلية السابق ذكرها في تلك المقالة.

ولزيادة تأكيد استحالته على الله تعالى نورد الآيات المناقضة لمعنى الاستقرار على العرش والأدلة الكونية فنقول الآيات المناقضة لمعنى الاستقرار ثلاث وهي:

أولًا: قال الله تعالى في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

فإذا فهم من الاستواء والمعيَّة ظاهرهما الذي هو الظرفية المكانية لزم التناقض لأنَّ الاستقرار على العرش يمنع المعيَّة المكانية مع أهل الأرض، والتناقض في كلامه تعالى محال، ولزم اتصاف القديم جلَّ وعلا بصفات الحوادث وهي المعيَّة المكانية وما يتبعها وهو محال.

فإن قيل: المقصود من المعية لازمها وهو (العلم) بقصد التخلُّص من مماثلة الحوادث.

فالجواب: كذلك المقصود من الاستواء لازمه وهو تدبير المملكة الإلهية لأنَّ الموجب في الاستواء والمعية واحد وهو ضرورة ملاحظة التقديس عن مماثلة الحوادث.

وفضلًا عن ذلك فإن الموجبات لهم الاستواء بالتدبير أكثر من موجبات فهم المعية بلازمها كما سيأتي بيانه مناسب لمعنى التدبير للمملكة ومرتبط به في المعنى بخلاف الاستقرار الذي لا يتوقف عليه التدبير.

ب ـ كونه تعالى معنا بعلمه وصفاته كما يليق بتقديسه، وكونه بصيراً بأعمالنا. كل هذا يدلُّ على المراقبة والمراقبة تقتضي الاجرءات والتصرُّفات التي أرادها تعالى بكل مخلوق وهذا كله يدخل ضمن التدبير بخلاف الاستقرار.

ثانياً: قال الله تعالى في سورة (ق) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

﴿ٱلْوَرِيدِ﴾، وفي سورة الواقعة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

فلو فهم الاستواء على العرش بمعنى الاستقرار المكاني لزم التناقض مع هذه الآيات، والتناقض في كلام الله تعالى محال.

فإن قيل: إن الاستقرار هو بالأمر والحكم والتصرُّف رجع الأمر إلى معنى تدبير المملكة الذي أشرنا إليه.

رابعاً: قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ فلو فهم الاستواء بمعنى الاستقرار للزم التناقض مع هذه الآية الشريفة والتناقض في كلام الله تعالى محال.

خامساً: قال الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾.

فلو كان تعالى مستقراً على العرش لكان محمولًا بالملائكة المحمولين بقدرته، ولكانوا أقوى وأولى بتدبير الملك، ولكان مفتقراً لمن يحمله، وكلُّ هذا من صفات الحوادث الفقراء العجزة، ولكنه تعالى قديم غنيٌّ عما سواه، قادرٌ لا نهاية لقدرته.

أما الأدلة الكونية فهي:

أولاً: بما أن الأرض كروية والسموات محيطة بها والعرش فوق السموات، فلو كان الاستواء على العرش بمعنى الاستقرار المكاني لزم اتصافه تعالى بما لا يليق بعلِّوه ورفعة شأنه على خلقه ولزم التغيُّر في صفاته تعالى وكل هذا محال للأدلة الآتية:

أ ـ أن أهل الأرض يفهمون أنَّ الله تعالى فوقهم على فرض أنه تعالى مستقر على العرش، ولكن إذا دارت الأرض نصف يوم

وجاء الليل انعكس الأمر، فيفهمون أنَّ رب العزة تعالى تحتهم وهو محال من وجهين: ارتفاع المخلوق على الخالق جل وعلا، وتغيّر صفات الخالق سبحانه وما أدى إلى المحال فهو محال.

ب ـ إن أهل الأرض في القسم المقابل يفهمون أن ربَّ العزَّة تعالى ليس فوقهم بل تحتهم وهذا محال لأنه لا يصحُّ أن الخالق تعالى فوق قوم وتحت آخرين.

فإذا دارت الأرض نصف يوم انقلب حال هؤلاء فصاروا يفهمون أن ربَّ العزة تعالى فوقهم بعد أن كان تعالى في نظرهم تحتهم والتغيُّر في صفات القديم تعالى محال.

ثانياً: أن الاستقرار المكاني على العرش ضروري لملوك الأرض لأنه يتوقف عليه الاعتراف بتقلُّدهم الملك والخضوع لأوامرهم وأحكامهم.

أما ملك الملوك والممالك فلا يتوقف ملكه على هذا فإنه تعالى ملك قبل أن يخلق العرش وما حواه من السموات والأرض، كما أنه تعالى قَهَر عباده على تنفيذ ما أراد، فكلهم مسخرون بقدرته طَوْعاً وكَرْهاً عرفوا أنه تعالى ملكهم أو لم يعرفوا، فنسبة الجلوس والاستقرار على العرش إليه تعالى محال لأن فيه تشبيه بملوك الأرض وإيهام أن الخضوع لإرادته يتوقف على هذا الاستقرار وكل هذا محال.

ثالثاً: لو كان الله تعالى مستقراً على العرش لتخيَّل الفكر مكاناً أعلى من العرش بآلاف الأميال، لجاز عقلاً أن يرتفع الإله تعالى إلى ذلك المكان الأعلى، فعدم ارتفاعه إليه يحتاج إلى مرجِّح لأنه لا ترجيح بلا مرجح، والاحتياج إلى المرجِّح من صفات الحوادث ولكنه تعالى قديم.

رابعاً: لو كان تعالى مستقراً على العرش لاقتضى الحال أحد ثلاثة أمور: إما أن يكون تعالى مساوياً للعرش أو زائداً عليه، أو ناقصاً عنه، وكل هذا تحديد وتقييد وهما من صفات الحوادث ولكنه تعالى قديم، وحيث أنَّ فهم الاستواء على العرش بمعنى الاستقرار قد أدى إلى هذه المحالات فهو محال.

فإن قيل: فما حكمة وجود العرش وما حكمة الإخبار بأنه تعالى استوى عليه، وما سبب توجُّه الضمائر إلى العرش؟

فالجواب: أن حكمة وجوده يعلمها الله تعالى ولسنا مكلفين بالبحث عنها، ولكن يمكن فهم بعض الحكم وهي:

١ ـ إنه تصدر منه الأوامر والأحكام إلى الملائكة لتنفذِّها في العوالم.

٢ ـ أنه تعالى أخبرَ بأنه خَلَقَ السموات والأرض ثم استوى على العرش يدبِّرُ الأمر. وهذا هو سبب اتِّجاه السائلين بضمائرهم وأفكارهم للعرش انتظاراً لتحقيق مسألتهم وإجابة ملتمسهم من ربِّهم سبحانه وتعالى لأنه تعالى فوق العرش ـ كما أن المصلي يتَّجه بوجهِهِ للقِبْلة في الصلاة، وليس الله تعالى في القبلة ونؤيد ذلك بمثال من أنفسنا.

فإذا ذُكر المَلك فإن الفكر يتَّجه لقصره الذي هو محل حكمه مع أن الملك قد يكون في أوروبا، ولكن هذه عادة الخيال لا العقل، ولا يتيَّسر للعبد ترك هذه العادة حتى يترقى عقله في المعرفة بالله تعالى وتتمكن العقائد من قلبه فتصير كأنها مشهودة له على الدوام، فعند ذلك يتجه لربه تعالى بقلبه مع كمال التقديس والتعظيم وهذا هو التوجه الحقيقي لله تعالى بالقلب.

أما التوجه بالخيال فليس حقيقياً لأن الخيال لا يدرك الحقائق لأن إدراكه معلول بالقياس على ما تدركه الحواس، والحواس لا قدم لها في إدراك الصفات الآلهية، فالخيالُ أعجز منها في ذلك والمخطىء في فهم الاستواء بمعنى الاستقرار جعل نفسه محكوماً بحواسه وخياله كمن رأى السَّراب فظنه ماء طبقاً لحال عينه وليس كذلك، أو من ركب القطار فظن أن الأرض تجري من تحته وليس كذلك.

فالعاقلُ لا يقبل أن يكون عقلُه تحت حكم حواسه بل يجب عليه أن ينتفع بعقله ويتصرَّف بذوقه في معاني القرآن العظيم ويفهمها بما يتفق مع بلاغته، ومع التقديس الإلهي ولا يكون كمن جاء لرسول الله ﷺ ومعه خيط أبيض وخيط أسود ويسأله عن الوقت الذي يمكن فيه الامتناع عن الأكل ليلًا مع أنهما يمكن تمييزهما من بعضهما طول مدة الليل فأجابه ﷺ بما معناه: (ليس هذا يا عريض القفا إنما المقصود هو تبين النور من الظلام في مطلع الفجر).

فنسأل الله تعالى أن يلهم عقولنا وقلوبنا وبصائرنا معرفة الحق والتمسُّك به على الدوام بحق فضله وإحسانه ورحمته وإكرامه لرسوله ﷺ وأصحابه وأهل بيته ومشايخنا أجمعين.

مغالطات القصيمي[1].!

إن هذه الثرثرة الفارغة، والجدل العقيم من القصيمي وإمامه الداعي إلى نحلتهم في مصر (الفقي) لا يمكن أن تنتهي عند حد، أو تقف عند غاية، ونحن نجزم بأنهم - وقد نصبوا أنفسهم للدعاية إلى هذه العقيدة المارقة عقيدة «التجسيم» - يستحيل عليهم أن يرجعوا إلى الحق ما دام رائدهم أن ينشروا على الناس باطلهم، ويسمموا جوَّ مصر الصَّافي بسموم هذه الأضاليل والأباطيل، مصر كنانة الله في أرضه التي طهَّرها الله تعالى من رِجْس العقائد الزائغة، والنِّحل البائدة، والتي لا يمكن أن تعثر فيها بعد طول الفحص والتفتيش على نِحْلة من النِّحل التي تئنُّ من وجودها الأمم الأخرى بين ظهرانيها كالإمامية والإسماعيلية والقاديانية والوهابية، مِصْر التي صَفَتْ عقيدةُ أهلِها كصفاء سمائها، والتي قنعت في أصول الدين بعقيدة أهل الحق من الماتريدية والأشاعرة، وفي فروع الدين بمذاهب الأئمة المتبوعين

---

(١) السنة ٨، العدد ٢٣ سنة ١٣٥٨ = ١٩٣٩. وعبد الله القصيمي من غلاة المجسِّمة ومتطرفي الوهابية، وهو صاحب كتاب «القول الفصل بين الوهابية وخصومهم» و«الصراع بين الإسلام والوثنية». وقد هلك القصيمي من قريب بعدما جاهر بإلحاده، وكتب كتابه: «هذه هي الأغلال»؟ ونعوذ بالله من الحَوْر بعد الكور، ومن الضلال بعد الهداية (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

وأصحابهم رضي الله عنهم أجمعين، يريد اليوم الفقي والقصيمي وزعانف من الأدعياء أن ينقلوها من تبعيتها لهؤلاء الأئمة، وانضوائها تحت راية جمهور العلماء، إلى الائتمام به وبشيعته والانضمام لحزبه، والانضواء تحت رايته لتكثير سواد أتباعه من الباعة والخدم.

يريد أن نترك ما أجمع عليه أهل الحق من تنزيه الله تعالى إلى نحلته الجديدة التي يثبت فيها لله سبحانه الجهة والمكان والحلول والاستقرار، ويثبت له الجوارح من الوجه واليد والأصابع واللهوات والأضراس إلخ.

يريد أن ينقلنا من عقيدة التقديس، وتنزيه الله تعالى عن صفات الحوادث إلى مثل ما جاء في كتاب عثمان بن سعيد الدارمي الذي طبع أخيراً «بتحقيق وعلى نفقة الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية» من قوله مثلًا (ص٤): «وكيف يهتدي (بشْر) إلى التوحيد؟ وهو لا يعرف مكان واحده، فلا هو ـ بزعمه ـ في الدنيا والآخرة بواجده».

وكتب رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بذيل الصحيفة تعليقاً على قوله: «مكان واحده» هذه العبارة بنصِّها: «كان خيراً لو قال: أين، ولم يقل: مكان».

كأنَّ رئيس جماعة أنصار السنة ومرءوسيه وأتباعه أيضاً يعتقدون بصرائح عقائدهم أن لله مكاناً يحل فيه ويستقر عليه، وأن له أينية وجهة يشار إليها بالإشارة الحسية إلا أنه يرى أن إثبات الجهة والأينية خير وأولى من إثبات المكان لله سبحانه كأن إثبات المكان جائز في نظره.

وتراه يقرر في الدرس على مستمعيه من العامة طبعاً، أن الله تعالى في جهة فوق، وأنه ينزل بذاته إلى سماء الدنيا، وإذا

لم يستطع العامي أن يهضم بعقله هذا الكلام، كان في استطاعة الفقي وهو عالم؛ أن يقنع تلميذه وهو عامي جاهل بصحة هذه العقيدة وأمثالها.

وهذا الأستاذ الشيخ عبد العزيز المسلاوي من جماعة الفقي زادوا في مقاله المنشور في صحيفتهم كلمة (مستقر) فجاءت العبارة في المقال المذكور هكذا «وأنه (مستقر) على عرشه» وقد طلب إليهم مراراً وتكراراً أن ينبِّهوا في مجلتهم التي يرأس تحريرها رئيس الجماعة المذكور على أن زيادة (مستقر) من عندياتهم، وأنه لا يقرُّها ولا يعتقدها فأبوا، ولم يصححوا هذه الزيادة التي ألصقوها بالأستاذ المسلاوي إلى الآن رغم أنفه.

والعجب أن القصيمي لا يسأل أصحابه الجواب عن هذه البلايا والطوام، ويسأل العلماء الذين تعرضوا للكتابة في هذا الموضوع على صفحات مجلة الإسلام أسئلة حشوها السفسطة والمغالطات، وكان عليه أن يتوارى هو وأصحابه خَجَلًا بعد ما ظهر من فضائحهم ومخازيهم ما ظهر، وعَلِمه الخاص والعام وأنا مع وثوقي بأنه لا ينخدع بأقوال القصيمي وأسئلته هذه إلا غِرٌّ جاهل، أو مكابر مخدوع، فأنا كاشف لك عمّا يستره تحتها من سفسطات ومغالطات.

فهو يقول: (ص٢٢ ع٢٦) من مجلتهم ما نصه:

«بأيِّ دليل أنكرتم علوَّ الله على خلقه واستواءه على عرشه، إن قلتم بدليل من الكتاب والسنة قلنا: لكم هل تستطيعون أن ترونا آية واحدة أو حديثاً واحداً قيل فيه: لا تعتقدوا أن الله مستوٍ على عرشه، أو قيل فيه يجب عليكم أن تؤولوا هذه النصوص، وأن تصرفوها عما يبدو منها، لأن اعتقاده كفر وضلال!».

وأقول إن هذا القول مواربات ومغالطات هي:

أ ـ أننا لا ننكر علوَّ الله المعنوي، أما العلو المكاني الخاص بالأجسام، والمسافات فهذا هو الذي ننكره تنزيهاً لله عنه لأنه من صفات المخلوقات، ولم يرد في القرآن ولا في الحديث ما يثبت العلو المكاني، والاستواء الحقيقي، وهذا هو محل النزاع بيننا وبينكم، فإن كان القصيمي يعلم نصا صريحاً أو دليلاً صحيحاً يثبت مدَّعاه فليخبرنا به، وإنا نتحداه بذلك.

ب ـ أنَّ العلو المعنوي الذي نؤمن به هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي علو العظمة فهو معنوي، والمفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي علو حكمة وهو معنوي، ومن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي فوقية قهر، قهر معنوية.

جـ ـ أننا نؤمن بالمعنى الحقيقي المتمشى مع التنزيه لجملة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المذكورة ضمن الآيات العظيمة السبعة التي منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وذلك المعنى هو المطابق لسياق الآية، ولقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وهو الذي يفهم منها وهي مندرجة ضمن الآية العظيمة، مع ملاحظة القيود الملازمة لها وهي:

١ ـ أن (استوى) فعل ماض معطوف على الفعل الماضي (خلق) بحرف (ثم) الدال على الترتيب، وحيث إن خلق فعل حادث فاستوى كذلك فعل حادث، فإذن لا يكون (استوى) صفة ذاتية قائمة بالله تعالى، لأن القديم لا يوصف بالحوادث.

٢ ـ أن (استوى) ملازم دائماً للفعل (خلق) في جميع الآيات التي ذكر فيها فلا بد أن يكون هناك ارتباط بين معنييهما، ومناسبة تامة بينهما.

٣ ـ وحيث إن خلق السموات والأرض تمجيدٌ للقدرة الإلهية، وإغشاء الليل النهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم تمجيد للإرادة الإلهية والعلم، فما توسط بينهما وهو ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ لا بد أن يكون مناسباً للتمجيدين المذكورين.

٤ ـ إن الجملة (استوى على العرش) يعبر بمثلها في اللغة كناية عن المُلْك، والتصرُّف، فيقال: (استوى فلان على سرير الملك) كناية عن التملك وإن لم يكن هناك سرير ـ انظر المصباح المنير وغيره ـ وإذن يوجد في اللغة ما يسوِّغ فهمها بمعنى الكناية عن تصرُّفه تعالى في السموات وتسخيرها بعد أن خلقها، وهو دلالة على اختصاصه تعالى بالخلق والتسخير.

٥ ـ أما فعل (استوى) فلا يُعبَّر به صراحة عن استقرار إلا في الجمادات، والإنسان فاستقرار الجمادات مفهوم من قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ الذي لا يفهم منه إلا استقرار جسم السفينة على جسم الجبل، وسكونها عليه بعد أن كانت تجري في موج كالجبال، ويستحيل أن يفهم منه التصرُّف والتسخير.

واستقرار الإنسان مفهوم من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهو لا يمكن أن يفهم منه إلا استقرار جسم نوح عليه السلام والمؤمنين الذين معه على جسم السفينة، بعد أن لم يكونوا مستقرين عليها، وأن هذا الاستقرار سيزول بنزولهم منها بعد استقرارها على جبل الجودي.

وهناك أيضاً يستحيل أن يفهم من (استوى) ما يصح أن يفهم من آيات الاستواء على العرش وكذلك يفهم استقرار الإنسان من قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فإنه لا يفهم منها إلا استقرار أجسام الناس على ظهور الدواب التي تتحرك بهم، وتنقلهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفس، فليس هذا المعنى هو ما يفهم في حقّ الله تعالى من التصرُّف في السموات والأرض التي خلقها جل شأنه.

وإذن فمعنى (استوى) في الآية الأولى غير معناها في الآية الثانية، والثالثة، والرابعة، وكذلك معناها في الآية الثانية مخالف لمعناها في الأولى والثالثة والرابعة، ومعناها في الثالثةِ مخالفٌ لمعناها في الأولى، والثانية، والرابعة:

وبناء على هذا فمن انتزع جملة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ من الآياتِ التي اشتملت عليها وفهمها وحدها ضلَّ سواء السبيل، وبَعُدَ عن الحقيقة، لأنه أهمل القيود والقرائن المبيِّنة لمعناها الحقيقي، فيكون كمن قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ وقطع هذه الجملة عما بعدها أو قال: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقطعها عما بعدها أيضاً، فإنه لا شك يخطئُ كثيراً، ويبعدُ عن الصواب بُعْدَ المَشْرِقين.

وفي القرآن الكريم كثيرٌ من الأساليب التي لا يصحُّ أن تفسر جملها تفسيراً لفظياً، بل لا بد من ملاحظة السياق والقرائن والذوق العربي فيها كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ فلو فسر الطائر بما ينصرف إليه ظاهر اللفظ لساء الفهم وانْطَمَست الحقائق.

وإذا كان لا يصحُّ فهم هذه الكلمات منفصلة عما قارنها

واتصل بها، فكذلك لا يجوز أن تفهم جملة: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ وحدها، دون أن تنظر فيما يحفُّ بها من القرائن ومن أراد أن يكون سلفياً فعليه أن يلزم نفسه:

أولاً: ألا يغير في كلمات الآية العظيمة باشتقاق اسم الفاعل (مستوٍ) أو المصدر (استواء) فكلاهما صفة ذاتية لا علاقة لها بالزمان، فضلاً عن أن معناهما مخالف للفعل الماضي (استوى) الدال على أنه فعل حادث مثل (خلق).

ثانياً: أن يلاخط الملازمة بين (خلق) و(ثم استوى) في جميع آيات الاستواء.

ثالثاً: أن يلاحظ ترتيب (ثم استوى) على (خلق).

رابعاً: أن يلاحظ تقديسَه تعالى عن الاستواء المكاني على جسم العرش فإنه يستلزم التحديد، ويوهم الاستراحة من التعب بعد خلق السموات والأرض.

خامساً: أن يلاحظ أوفق معنى من معاني (استوى) التي تليق بالله تعالى في الآيات التي ذكرت فيها جملة ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ فلا يفهم منها ما يفهم من استواء السفينة على الجودي، أو استواء نوح عليه السلام على السفينة إلخ، ولو كانت الآية مسوقة لإثبات مجرَّد ظاهر الاستواء لقال تعالى: (إنَّ ربكم الله الذي استوى على العرش) وبما أن هذا لم يرد في أيِّ آيةٍ من آي الذكر الحكيم، فقد دلَّ هذا على أنه ليس المقصود من آيات الاستواء ما يفهم من ظاهر اللفظ كالاستقرار والجلوس، ومن لم يراع ما يتَّصل بهذا اللفظ لم يكن سلفياً.

من ذلك نعلم أن ما ورد في الكتاب العزيز عن العلو،

والاستواء مخالف لما ادعاه القصيمي، وأن دعواه بأن الكتاب والسنة قد نطقا بها هي دعوى باطلة ومغالطة ظاهرة.

د ـ لا يلزم من عدم ورود النهي بهذا اللفظ وهو: (لا تعتقدوا أن الله مستوٍ على عرشه) أنه يجوز اعتقاده، كما لا يلزم من عدم ورود نهي صريح عن اعتقاد أن الله تعالى جسم، أو متحيّز، أومحدود أنه يجوز اعتقاده كذلك، فهذا ممنوع بدلالة الآية المحكمة وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وبدلالة العقل أيضاً، وفضلًا عن ذلك فإننا لا يصح أن نعتقد إلا ما ورد الإذن به في القرآن الكريم، وكل عقيدة لم ترد في القرآن، أو يوجبها العقل بالدليل المنطقي تكون اختراعاً وابتداعاً.

هـ ـ كما أنه لا يوجد آية فيها: (يجب عليكم أن تؤولوا هذه النصوص وأن تصرفوها عما يبدو منها)، فكذلك لا توجد آية ذكر فيها: ولا تؤولوا هذه النصوص المتشابهة ولا تصرفوها عن ظاهرها إذا كان ظاهرها مخالفاً للآية المحكمة وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أو أدى ظاهرها إلى إيهام وجود التناقض في كلام الله تعالى بين الآيات المتشابهات، والمحكمات.

و ـ إذا كان التأويل لهذه الحكمة الضرورية خطأ فلماذا جرى (القصيمي والمسلاوي) مع تأويل ابن القيم والذهبي، وغيرهم المعية بالعلم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

فإن كان تأويلها بسبب أن ظاهر المعية يوهم التحديد، فكذلك ظاهر الاستواء على العرش يوهم التحديد، فكما أوّلوا

المعية كان يجب عليهم تأويل الاستواء لأن كلا منهما يقتضي التحيُّز والتحديد، وإذا كان ظاهر الاستواء لا يستلزم التحديد في رأيهم فظاهر المعية أيضاً لا يستلزم التحديد على رأيهم.

وهنا نسأل القصيمي: (لماذا قبلت تأويل المعية)؟ ألكونها ظرفية وكون ظاهرها يوهم التحديد، والمكان أم لأجل التخلص من التناقض الذي توهمته في هذه الآية الشريفة، لأنك تعتقد كجماعتك أنَّ الاستواء الظاهر لا يكون إلا مكانياً، والمعية لا تكون إلا مكانية، وأن وجود ذاته تعالى معنا في الأرض مناقض لوجود ذاته تعالى فوق العرش، لذلك أوَّلت المعيَّة بالعلم، وتركت الاستواء بغير تأويل، فوقعت في التشبيه ولو أولتهما معاً لما وقعت في ذلك، فكما أن ظاهر المعية لا يعقل بغير التحديد، والتحيُّز في الأمكنة، فنسبة ظاهرها إلى الله تعالى تشبيه بخلقه فكذلك ظاهر الاستواء على العرش لا يعقل بغير التحديد والتحيّز في الأمكنة فهو تشبيه أيضاً ومحال على الله تعالى، فكما خالفت مبدأك، وأوَّلت المعية بأنها معنوية كناية عن العلم فراراً من التشبيه يجب أن تؤول الاستواء بأنه كناية عن المُلْك والتصريف فراراً من التشبيه، وإلا كنت كمن يكيل بكيلين إذ يحل لنفسه ما يحرمه على غيره، ولا شك أنه لا يقول بهذا عاقل.

٢ ـ مغالطات القصيمي

يقول القصيمي في (ص٤٥) من العدد ٢٧ ما نصه:

«هذا إلحادٌ صريح، بعد هذا نقول لكم: اعلموا أن ما تدعون إليه من إنكار الاستواء والعلو، هو إلحادٌ صريح، وإنكار لوجود الله لا ريب فيه، ولكن عباراتكم منافقة جاهلة مخادعة، وإلا فلا فرق بين قولكم، إن للعالم رباً، وخالقاً، موصوفاً بالوجود، والحياة، والقدرة، والخلق، ومع هذا ليس بقريب من العالم، ولا بعيد، ولا بمتصل به، ولا منفصل عنه، ولا حال فيه، ولا بائن عنه، ولا فوق، ولا تحت، ولا يميناً، ولا شمالًا، ولا قداماً، ولا خلفاً، ولا... ولا... نعم ولا فرق بين هذه المقالة وبين قول الملحدين الصُّرَحاء إنه لا ربَّ لهذا العالم، ولا خالق له، فهذا. كهذا، والاختلافُ راجعٌ إلى اللفظ لا إلى المعنى بلا شك فإن كنتم تجدون فرقاً فاذكروه».

لي على هذا القول ملاحظتان:

الأولى: أن هذه مغالطة منمَّقة، مزخرفة، يظهر للقارئ أن عليها طلاوة الحجة والبرهان القاطع، ولكن من يتأمَّل فيها يجدها جوفاء خرقاء وأنها إن دلَّت على شيء فلا تدل إلا على الجهل بالمحسوس والمشاهد في العالم وفي نفس الواقع، فضلًا عما فيها من فحش القول وهُجْر الكلام المتجليين في قوله: «عباراتكم منافقة إلخ».

الثانية: أن القصيمي يكذب نفسه بنفسه في قوله (ص٢٧ من العدد ٢٦ وإليك البيان:

إثبات الملاحظة الأولى: إنه يوجد في العالم أمثلة كثيرة من رفع المتضادات عن الشيء إذا انعدم السبب المسوِّغ لاتصافه بشيء من هذه المتضادات.

فالحيوان: لا هو عالم، ولا هو جاهل؛ لأنه فاقد للعقل المسوِّغ لاتصافه بأحدهما، ولا هو ذكي ولا هو بليد؛ لأنه فاقد للعقل المسوِّغ لاتصافه بأحدهما، ولا هو غني ولا هو فقير لأنه فاقد للملك المسوِّغ لاتصافه بأحدهما.

والجماد: لا هو مجبور ولا هو مختار لأنه فاقد للحياة المسوِّغة للاتصاف بأحدهما، ولا هو راض ولا هو غضبان لأنه فاقد للحياة المسوغة للاتصاف بأحدهما.

والهواء: لا هو أبيض ولا هو أسود، لأنه فاقد للجسم الكثيف القابل للتلوُّن بالألوان والمسوِّغ لاتصافه بأحدهما.

والجماد أيضاً: لا هو متلذذ، ولا هو متألم، لأنه فاقد للحياة المسوِّغة لاتصافه بأحدهما، ولا هو متكلم ولا هو صامت، لأنه فاقد للحياة المسوِّغة لاتصافه بأحدهما، ولا هو قوي ولا هو ضعيف، لأنه فاقد للحياة المسوِّغة لاتصافه بأحدهما.

والعلم: لا هو متحرك، ولا هو ساكن، لأنه فاقد للحيِّز المسوغ لاتصافه بأحدهما، ولا هو ذكر ولا هو أنثى، لأنه فاقد للحياة المسوِّغة لاتصافه بأحدهما.

والصدق: لا هو كبير الحجم، ولا هو صغيره، لأنه فاقد للحيِّز المسوغ لاتصافه بأحدهما.

والحلم: لا هو حار، ولا هو بارد، لأنه فاقد للجسمية المسوِّغة لاتصافه بأحدهما.

والإرادة: : لا هي ثقيلة وزناً، ولا هي خفيفة، لأنها فاقدة للجسمية المسوِّغة لاتصافها بأحدهما، ولا هي حلوة ولا هي مُرَّة، لأنها فاقدة للجسميّة المسوِّغة لاتصافها بأحدهما.

والرضا: لا هو سريع الحركة ولا هو بطيء الحركة، لأنه فاقد للحيز الذي تتعلق به الحركة والسكون.

والفقير: لاهو كريم، ولا هو بخيل، لأنه فاقد للمال المسوِّغ لاتصافه بأحدهما.

ولو أردنا حصر هذه الأمثلة لعجزنا عن الإحاطة بها لكثرتها، فكيف غابت هذه المعلومات البديهية عن عقل القصيمي وهذه الجماعة حتى تجاسر على القول باستحالة وجود المتضادات في شيء واحد، وبنى عليه استحالة اتصاف الله تعالى بالقرب من العالم والبعد عنه، وبالاتصال بالعالم، والانفصال عنه إلى آخر دعواه؟

ولو كان يؤمن بأقواله المنشورة بالعدد ٢٧ وأقوال«المسلاوي» بالعدد الخامس والعدد الحادي عشر، وهي استحالة التحديد على الله تعالى، لعلم أن التحيُّزَ مستحيلٌ على الله تعالى، وإذا استحال الحَيِّزُ استحال القرب من العالم والبعد عنه، واستحال الاتصال بالعالم والانفصال عنه، واستحال الحلول فيه، أي الاتصال به، والبينونة عنه أي الانفصال منه.

ولإيضاح ذلك نقول وبالله تعالى التوفيق والإعانة:

إن القرب بين الشيئين هو القرب بين حيزيهما، والبعد

بينهما هو البعد بين حيزيهما، فإذا انعدم الحيِّز انعدم القرب والبعد تبعاً لذلك.

وبما أن الله تعالى يستحيل عليه الحيِّزُ، والتحيُّز، فيستحيل أن يكون قريباً من العالم قرب مسافة، كما يستحيل أن يكون بعيداً عنه بعد مسافة وهو المطلوب.

وكذلك الاتصال بين الشيئين هو مجاورة حيزيهما، والانفصال هو انفصال حيزيهما، وبعدهما عن بعضهما، فإذا انعدم حيزهما، أو حيز أحدهما، انعدم الاتصال والانفصال تبعاً لذلك.

وبما أنَّ الله تعالى يستحيلُ عليه الحيز والتحيز، فيستحيل اتصاله تعالى بالعالم، وانفصالُه عنه، وهو المطلوب.

وبالقياس على استحالة الاتصال والانفصال يستدل على استحالةِ الحلول داخل العالم، والبينونةِ عنه لأنهما في معنى الاتصال والانفصال.

وإذن فلا يلزم أن يكون الله تعالى كما يقول القصيمي معدوماً كما لا يلزم من تنزيهه تعالى عن هذه الأضداد ألا يكون موجوداً، ولو علم القصيمي هذا لاستحيا من أن يتهم من يعلمون هذه البراهين بالإلحاد.

إثبات الملاحظة الثانية: أما أن القصيمي يكذب نفسه بنفسه، فلأنه يقول (ص٢٧) من العدد ٢٦ ما نصه:

ثم نسألكم رابعاً ونقول: ألستم تؤمنون بأن الله سوف يرى في الآخرة؟ إن جوابكم لا بد نعم، وعلى هذا نقول لكم: إذا عقلتم أن الله تعالى يُرى بالأبصار ولا يلزمه أن يكون في جهة من

الجهات، ولا أن يكون مقابلًا للرائي، ولا في نحو من أنحائه ولا جهة من جهاته، أي إذا آمنتم بالرؤية، وجمعتم بين القول بها والقول بالتنزيه، واعتقدتم أنفسكم منزِّهين مع قولكم بالرؤية البصرية فكيف لا تستطيعون أن تفهموا أيضاً أن يكون مستوياً على عرشه، عالياً على خلقه، ثم لا يلزم ذلك تشبيه، ولا تجسيم، بل ولا أن يكون في جهة من الجهات، ولا نحسب أن إنساناً يعطي الإنصاف عقله وعقيدته ثم يشك في أن الأمرين سواء.

فقد اعترف القصيمي نفسه بأن الله تعالى ليس في جهة من جهات الرائي، فلا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام، ولا خلف، ولا قريب ولا بعيد، لأن القرب والبعد مرتبطان بالجهات، ولا متصل ولا منفصل لأن الاتصال والانفصال مرتبطان بالجهات أيضاً، وإذن لا معنى للقول بالاستواء المكاني على العرش أو العلو المكاني، وليس أصرح من هذا تكذيباً للقصيمي في اعتراضه المذكور بصفحة **٤٥** بالعدد **٢٧**.

أما الإجابة على هذا السؤال فهي ما نقرره فيما يلي:

إننا لا نستطيع أن نجمع بين الاستواء المكاني على العرش، وبين استحالة الجهات على الله تعالى إلا إذا تركنا عقولنا، وتكلمنا بغير عقل، فإن العرش فوقنا، والمستوي عليه هو في جهة فوق بالضرورة، وهذا إثبات للجهة ولا يمكن الجمع بين نفي الجهة وإثباتها لله تعالى، لأن الجمع بين هذين الضدين مستحيل.

أما الرؤية البصرية فباعتراف القصيمي أنها لا تتوقف على الجهة، ولا المقابلة فهي ممكنة ونحن نؤمنُ بها، لأنَّ الله سبحانه

وتعالى سيخلقُ في أبصارنا قوةً خارقة للعادة يمكننا بها أن نرى من ليس له مكان ولا جهة ولا حيِّز فإنَّ الرؤية نوع انكشاف يحصل عن الرائي المخلوق بقوة الله تعالى.

أما الاستواء المكاني فهو عين الجهة، والتحديد، والتحيُّز، وكلُّ هذه الصفات مستحيلة على الله تعالى باعتراف القصيمي والمسلاوي ما توضح فهو إذن مستحيل.

فشتان بين الرؤية التي لا تستلزم الجهة، والتحيّز، وبين الاستواء المكاني على العرش الذي لا يعقل إلا في جهة فوق. أفهل يعقل مساواة الجهة بضدها وهو عدم الجهة؟ ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾؟

فإن قيل: إذا كان الله تعالى ليس في مكان فوق العرش أو في السماء فلماذا تتجه ضمائرنا إلى جهة فوق عند التضرُّع إلى الله تعالى؟

فالجواب هو: أن هذا حكم الخيال، فإنه يجسِّم ما لا يقبل التجسيم، ويمثِّل المعنويات بالحسيَّات عند التعبير. لذلك يريك التقوى في المنام ثوباً فضفاضاً كما رآه سيدنا عمر رضي الله عنه وأوَّلها له ﷺ بالتقوى، وهذا يدل على أن الخيال يجسِّم المعاني ويجسم ما لا يقبل التجسيم وهو الباري جل وعلا.

فيقال مثلًا: الرحمة فوق العدل، مع أنهما ليسا في مكانين، فقد استعيرت الفوقية المكانية للرحمة للتعبير عن الفوقية المعنوية ولولا هذا لما أمكن توصل هذا المعنى إلى ذهن السامع.

ويقال: تحرك الركاب العالي، مع أنه لا يزال سائراً على

الأرض، ولكن استعير العلو المكاني للتعبير عن العلو المعنوي، ويقال إن فلاناً منزلته في السماء السابعة إشارة إلى ترقيه المعنوي الظاهر مع أنه لا يزال موجوداً بجسمه في الأرض وهكذا.

فكذلك الخيال يشير إلى عظمة ربه جل وعلا، وكبريائه، وعلوه المعنوي بالعلو المكاني، لأنه ليس في استطاعته التعبير عن المعنويات إلا بالحسيات، وذلك لأن إدراكه عالة على الحواس، فما تعلقت به الحواس، تعلَّق به الخيال، وما لا تدركه الحواس لا يتعلق به الخيال.

فالعين مثلًا تدرك الصور، والألوان، فبعد زوال المرئيات من العين يتخيَّل صورتها الخيال.

والأذن تسمع الأصوات الجميلة، فبعد زوالها يتخيل نغماتها الخيال.

واللسان يدرك حلاوة العسل مثلًا، فبعد زوالها من اللسان يتخيل لذاتها الخيال.

واليد تدرك لذة نعومة الأجسام، فبعد زوالها عن اليد يتخيل نعومتها الخيال، وهكذا. وحيث إن الحواس قد تخطئ في إدراكها، فكذلك الخيال يخطئ تبعاً لها، والعقل يصحح لهما الخطأ.

فالعين ترى السراب بالقيعة والصحراء ماء، والخيال يوافقها ولكن العقل يصحح لها الخطأ، فيحكم بأنه ليس هناك ماء.

والعين أيضاً ترى الشخص الواحد طويلًا في القرب، قصيراً في البعد، والخيال يوافقها ولكن العقل يصحح لها الخطأ. فيحكم بأن الشخص على طول واحد لم يتغيَّر في حالتي القرب والبعد.

والأذن تسمع صدى الصوت فتظنه صوت شخص آخر، والخيال يوافقها ولكن العقل يصحح لها الخطأ، ويحكم بأنه صوت المتكلم الأول لا صوت شخص آخر.

ولسانُ المريض يذوق السُّكر مراً، مع أنه حلو، والخيال يوافق ولكن العقل يصحِّح هذا الخطأ، بأن المرارة أثر من آثار إحساس المريض لا من ذوق السكر.

وراكب القطار أو السفينة، يراهما ثابتين والأرض جارية بما عليها من أشجار وحيوان، وبيوت وجبال إلخ، والخيال يوافقه على ما رأى، ولكن العقل يصحح له الخطأ ويحكم بأنه هو وحده السائر بسير القطار أو السفينة، والأرض ثابتة بما عليها.

فكما أن إدراك الحواس لا يدل على أنه مطابق للواقع، فكذلك إدراك الخيال لا يدل على المطابقة للواقع، واتجاه الخيال إلى جهة فوق عند التضرُّع لا يدل على أن الله تعالى في جهة فوق، وإنما يستعير الخيال جهة فوق التي هي أشرف الجهات لما يراه فيها من مظاهر العظمة والقهر، للإشارة إلى عظمة خالقه جل وعلا، لأن هذا هو كل ما يستطيعه للتعبير عن عظمته تعالى.

أما العقل فهو الذي يدرك الأمور على حقيقتها فحكمه هو الصحيح لأنه مبنيٌّ على الدليل والبرهان، وهو الذي يصحح للخيال، والحواس خطأهما. فكما يصحح خطأ العين، والأذن، واللسان، واليد، فإنه يصحح أيضاً للخيال خطأه عند التضرُّع. فمع أن الخيال يمثِّل العظمة المعنوية لربه جل وعلا بالفوقية المكانية، فإنه لا يزال العقل يحكم بأنه تعالى منزَّه عن المكان، والجهة، ويرشدُ الخيال إلى هذه الحقيقة. فاتجاه الخيال إلى جهة فوق هو إذن إشارة إلى تلك الفوقية المعنوية، فالخيال والعقل يعظِّمان ربهما جل وعلا كل بحسب استطاعته.

ولكن تعظيم الخيال بالفوقية المكانية مجازي ورمز إلى الفوقية المعنوية، وتعظيم العقل بالفوقية المعنوية حقيقي وهو الذي عليه المعوَّل، فإن العقل هو المصحِّح دائماً لأخطاء غيره كما قدمنا، وقد كلفنا الله بمقتضى العقل فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

ولو اتَّبَع الإنسان حواسه لوقع في كثير من الأخطاء، كمن يرى السرابَ ماءً، وكذلك يكون حاله إذا اتَّبَع خياله، وإذن لا منجى من الأخطاء إلا باتباع العقل، وهو الذي عليه مدار التكليف، والمسؤولية، فكما لا تصدق حكم العين على السراب أنه ماء وحكمها على الشخص الواحد بالطول والقصر لبعده أو قربه، وحكمها بتحرك الأرض وما عليه بالنسبة لراكب القطار أو السفينة مع ثبوت العكس، وحكم الأذن على صَدَى الصوت، وحكم اللسان حال المرض، فكذلك يجب عليك عدم تصديق اتجاه الخيال للفوقية عند الدعاء والتضرُّع لأن اعتقاد أن الله تعالى منزَّهٌ عن المكان والجهة هو المطابق للعقل والكتاب والسنة، وهو مقتضى الإيمان الصحيح رغماً عن مخالفته للخيال والحواس، فإنه حكم العقل المبني على الدليل، والبرهان، والمطابق للقرآن العظيم. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

ولا يزال العبد متأثراً بحكم خياله في مبادئ الأمور، والعقل يصحِّحُ له الخطأ حتى يتغلَّب حكم العقل على حكم الخيال، فإذا صار ملازماً لحكم العقل اضمحلَّ وجدانه الخيالي، فلا يتخيَّل ربه جل وعلا في الأمكنة والجهات ولا مشبهاً بصفات الحوادث، بل يراه بعقله وقلبه متَّصفاً بصفات التقديس،

والكمال المطلق، وعند ذلك يكون إيمانه قلبياً وجدانياً نذوقه بقلوبنا كإيمان الأنبياء، والملائكة، والكُمَّل من أوليائه.

نسأل الله أن يمنَّ علينا بفيض من بحار علومهم حتى ترتوي به أرواحنا، وحتى يصير إيماننا ذوقياً، قوياً كاملًا مقروناً بمحض العبودية لله تعالى، ومن الله التوفيق وبه نتأيد، وعليه وحده المعول.

٣ ــ مغالطات القصيمي
في دفاعه عن المجسمة

يقول القصيمي (ص٢٣) من العدد ٢٦ من مجلتهم ما نصه: (وأما إن قلتم: إن دليلنا على نفي العلو والاستواء دليل عقلي، قلنا لكم: وما هو هذا الدليل العقلي؟ إن قلتم: إننا لا نعرف استواء، ولا علواً إلا بجلوس، ولا يجلس إلا الأجسام، ولا تكون الأجسام إلا مخلوقة حادثة. قلنا لكم: هذا مثل أن يقال: لا يصح وصف الله بصفة العلم مثلًا، لأنَّ العلم لا يكون إلا عرضاً، والعرض لا يكون إلا مفتقراً إلى غيره، أي إلى جوهر يقوم به، ولا يفتقر إلا الحادث المخلوق، والجوهر لا يكون إلا جسماً أو إلى ما يؤول إلى الجسم، والأجسام، والجواهر، والأعراض لا تكون إلا حادثة مخلوقة).

وهذا القول فيه عدة مغالطات هي:

١ ـ أنه يفرض أن صفات الله تعالى أعراض كأعراض الأجسام فالاستواء المكاني، والعلم والقدرة ونحو ذلك، في نظره سواء من حيث إنها كلها أعراض حادثة.

٢ ـ أنه يجعل هذا الفرض أساساً لاستشكاله على القائلين بالتنزيه عن الاستواء المكاني ويقول لهم: يلزمكم إذا نفيتم الاستواء المكاني أن تنفوا أيضاً العلم وباقي الصفات.

٣ ـ أن فرضه هذا باطل، فالاستشكال المبني عليه باطل، ودليل البطلان أن صفات العلم والقدرة والإرادة من الصفات القديمة الواجبة لله تعالى وهي في المخلوق حادثة، وفرق بين القديم والحادث، أما الاستواء المكاني فهو مستحيل على الله تعالى كما يعلم ذلك من الفرق بين حقيقة العرض وبين الصفات الإلهية القديمة.

٤ ـ فالعرض هو ما يعرض بعد العدم، ولا يقوم إلا بالأجسام وجواهرها، **وهو إما حسي**: كالحركة العارضة بعد السكون، والسكون العارض بعد الحركة، وكبر الحجم وصغره والحيز العارض له في حالي الكبر والصغر، والسواد العارض بعد البياض، والبياض العارض بعد السواد، والحرارة العارضة بعد البرودة، والبرودة العارضة بعد الحرارة، والمرض العارض بعد الصحة، والصحة العارضة بعد المرض، وثقل الوزن العارض بعد الخفة، وخفة الوزن العارضة بعد ثقله، وهكذا.

وإما معنوي: كالعلم العارض للمخلوق بعد الجهل، والجهل العارض له بعد العلم، والحياة العارضة بعد الموت، والموت العارض بعد الحياة، والحلم العارض بعد الغضب، والغضب العارض بعد الحلم، وهكذا.

فكل هذه أعراض. أي: عارضة للإجسام بعد أن كانت معدومة، وكلها أعراض حادثة، ودليل حدوثها المشاهدة، والعيان.

أما صفات الله تعالى: كالوجود، والعلم، والقدرة، والإرادة فهي قديمة واجبة لله تعالى، بدليل حدوث الجواهر والأعراض، إذ لا يوجد هذه الحوادث إلا إله قادر، مريد، عالم، فأين تلك

الأعراض الحادثة من هذه الصفات الإلّهية الواجبة القديمة؟

٥ ـ إن من تأمل في الاستواء المكاني، والعلو المكاني، يجدهما مندرجين ضمن الأعراض، لا ضمن الصفات الإلّهية، ولإيضاح ذلك نقول، وبالله تعالى التوفيق والإعانة:

لا يخفى أن الاستواء المكاني لا يعقل إلا بين جسمين: أحدهما مستو، والآخر مستوى عليه قد اشتركا في الحد الفاصل بينهما، وعلى هذا، فالاستواء المكاني لجسم على جسم هو ملاصقة حيز الجسم الأعلى لحيز الجسم الأسفل، وذلك كاستواء جسم الإنسان على الكرسي أو على ظهر الدابة.

ولا يخفى أن العلو المكاني لا يعقل إلا بين جسمين: أحدهما أعلى من الآخر. إما ملاصقاً له، أو فوقه بمسافة.

وعلى هذا، فالعلوُّ المكاني لجسم على جسم، هو علو حيِّز الجسم الأعلى، فوق حيز الجسم الأسفل، فوجود كل من الاستواء المكاني، والعلو المكاني متوقف على وجود الحيزين، وحيث إن كل حيز حادث لأنه ملازم للجسم الحادث، ولأنه يقبل الزيادة والنقصان، ولأنه مفتقر لمن يحدده، ويقدره فإذن يكون الاستواء المكاني المتوقف على الحيز حادثاً، والعلو المكاني المتوقف على الحيز حادثاً، وإذا ثبت أن كلا من الاستواء المكاني، والعلو المكاني عرض حادث فقد ثبت أنه لا يصح أن يقاس على صفات الوجود الإلهي، والعلم الإلهي، والقدرة الإلهية والإرادة الإلهية القديمة الواجبة لله تعالى التي لا تتوقف على الحيز ولا على المحدد، ولا على المخصص.

فقياس القصيمي للاستواء المكاني، والعلو المكاني على

تلك الصفات الإلهية هو قياس مع الفارق الملموس، فهو إذن باطل، وما بنى عليه من الاستشكالات باطل بالضرورة.

وبذلك قد سقطت جميع الاستشكالات التي يقصد بها القصيمي إلزامنا بإثبات العلو المكاني، والاستواء المكاني.

وعليه فيكون الوجود الإلهي، والعلم الإلهي، والقدرة الإلهية، والإرادة الإلهية واجبة لله تعالى.

أما الاستواء المكاني، والعلو المكاني، فهما عرضان، حادثان، فيكونان مستحيلين على الله تعالى وهو المطلوب.

٦ ـ مما يؤكد استحالة اتصافه تعالى بالاستواء المكاني، والعلو المكاني، أن الله تعالى منزه عن التحديد، والتشبيه، والقصيمي نفسه يعترف بذلك كما يعلم من قوله (ص٢٧) بالعدد ٢٦: «كيف لا تستطيعون أن تفهموا أيضاً أن يكون تعالى مستوياً على عرشه، عالياً على خلقه، ثم لا يلزم ذلك تشبيه، ولا تجسيم، ولا أن يكون في جهة من الجهات؟» وكما يقول المسلاوي في صفحة (٣١) بالعدد (١١) ما نصه: (وتعالى ربنا عن التحديد والتشبيه).

فالآن حَصْحَصَ الحق ونطق القصيميُّ بتنزيهِ الله تعالى عن الجهة والمكان من حيث لا يقصد.

إذن فلماذا يقول إن الله تعالى متَّصف بالاستواء المكاني على العرش، وبالعلوِّ المكاني مع أن هذا يناقض التنزيه عن التحديد وعن الجهات والأمكنة، ويظهر أن وضوح الأدلة القرآنية، والعقلية، وكثرتها ألزمه الاعتراف بالحق رغم أنفه من حيث لا يشعر، وماذا عليه إذن أن يقول معنا: إن الاستواء

معنوي لا علاقة له بالجهات، والعلو معنوي، لا علاقة له بالجهات، ولو قال هذا لانفضَّ النزاع، ولاجتمعت قلوبنا على الحق.

٧ ـ إن مما يؤكد استحالة اتصافه تعالى بالاستواء المكاني على العرش، وبالعلو المكاني، والوجود الظرفي في السماء الآيات الآتية:

أ ـ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ سورة الأنعام.

ب ـ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ سورة «ق».

ج ـ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ سورة الواقعة.

د ـ وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ سورة الملك.

هـ ـ وقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ سورة مريم.

و ـ وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ سورة البقرة.

ز ـ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ سورة الشورى.

ح ـ وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ سورة الحديد.

ي ـ وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾.

فلما وجد القصيمي وشرذمته أن الاستواء المكاني على العرش يتصادم مع هذه الآيات العظام، وأنه لا بد من تلاشيه أمامها، إذ يستحيل أن يثبت لله تعالى وجود حسي بالمعنى الذي يفهم من ظاهر هذه الآيات في كل هذه الأمكنة في آن واحد، واضطروا للروغان وعمدوا في هذه المواضع إلى التأويل الذي يرفضونه، ويعتبرونه تعطيلًا للصفات، مع أنهم يحرمونه على أهل التنزيه، وبذلك نقضوا أصلهم في التزام عدم التأويل وخالفوا مذهب السلف في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: قد أولوا الآية (أ) بأنه تعالى موجود في السموات وفي الأرض بعلمه، كما يعلم من مقال «المسلاوي» بصفحة رقم ١٦ في العدد الخامس من مجلتهم، ولا يخفى أنه قد عدل عن مذهب السلف الذي يدعو إليه، وهو عدم التأويل، فهو يناقض نفسه بنفسه.

المسألة الثانية: قد أولوا الآية (د) بما يفهم من مقال «المسلاوي» بالصفحة نفسها من العدد الخامس، إذ يقول: (لا يريد تعالى، وتقدس أن هذه السماء الحادثة ظرف له، وإنما معناه، أنه سبحانه فوقها على العرش بلا تحديد، ولا احتياج إلى العرش، ولا إلى غيره) وهنا جملة ملاحظات.

١ ـ أنه قد خالف مبدأ السلف أيضاً، فضلًا عن أنه غير كلمة (في) في الآية بكلمة (فوقها) وشتان بين معنى الظرفية المستفاد من (في) وبين الفوقية المستفادة من (فوقها).

٢ ـ أنه ناقض نفسه، لأن ما على العرش غير ما هو تحت العرش، والعرش هو الفاصل بينهما، فلو كان تعالى موجوداً بذاته على العرش لكان محدوداً بالعرش وهذا يناقض قوله: (بلا تحديد).

٣ ـ أنه يذكر كلمة (بلا تحديد) ليوهم العامي أنه ينزه ربه جل وعلا عن التحديد، ولكنه هدم معناها بقوله: (فوقها على العرش) مع إرادة المعنى الظاهر من الفوقية فإن هذا هو عين التحديد ما داموا يريدون الظاهر ولا يؤولون:

المسألة الثالثة: قد أوَّلوا المعيَّة دون الاستواء في الآية (ط) فجعلوا المعيَّة بمعنى العلم، فعملوا بمذهبي السلف والخلف، أي بالتأويل وعدمه في آية واحدة، وهذا خلط وتخبط، وما حملهم على هذا إلا الهرب من تصادم الاستواء المكاني الذي يزعمونه بظاهر المعية، يدل على ذلك قول «المسلاوي» بصفحة ٣١ بالعدد ١١ وقوله بصفحة ١٦ بالعدد الخامس.

المسألة الرابعة: قد أولوا المعية في الآية (ي) بالعلم أيضاً، يدل على ذلك قول «المسلاوي» بصفحة ١٦ بالعدد الخامس.

وظنوا أنهم تخلصوا بذلك من التناقض الحاصل بين ظواهر تلك الآيات، ولكنهم قد خاب ظنهم إذ لا يزال التناقض قائماً لاستحالة أن تكون ذاته تعالى فوق العرش وأن تكون في الوقت نفسه أقرب إلينا من حبل الوريد، وأقرب إلينا من أنفسنا، وأن تكون في الوقت نفسه في كل مكان حيث نولي وجوهنا إليه في جميع الجهات.

وهنا نسأل القصيمي، وشرذمته الأسئلة الآتية:

أولاً: لماذا لم تؤولوا الآيات: (ب) و(و)؟ وكيف يمكن الجمع بينها وبين ظاهر الاستواء على العرش؟ مع أن معانيها متضاربة؟ فإما أن يكون الله فوق العرش بعيداً عن أهل الأرض، وإما أن يكون قريباً من أهل الأرض وتحت العرش، وحينئذ لا مفر لكم من أحد أمرين وهما:

إما أن تؤولوا كلاً منهما بأنه معنوي، فيكون الاستواء معنوياً، والقرب معنوياً، وتكونوا قد سلمتم بصحة التنزيه الذي ندعوكم إليه.

وإما أن تبقوا كلاً منهما على ظاهره فتخرجوا من دائرة العقل والعقلاء، فهل عندكم طريق آخر غيرهما؟ أجيبونا إن استطعتم الجواب للحكم عليكم بأحد الحكمين.

ثانياً: لماذا أوَّلتم المعيَّة دون الاستواء في آية الاستواء بسورة الحديد؟ فهل تكونون سلفيين، وغير سلفيين في آية واحدة، وفي لحظة واحدة؟ وهل لا تشعرون بهذا التناقض في المبادئ؟ وهل أنتم جادون في أقوالكم، أم هازلون؟ وإن كنتم لا تشعرون بهذا التناقض، فهل الأمة جميعاً لا تشعر، ولا تدرك هذا التناقض، وتعتبر أقوالكم ذات قيمة دينية أو عقلية وإن خالفتم التنزيه الذي يدرس في أكبر جامعة إسلامية كالأزهر الشريف؟ والذي لا يحيد عنه جمهور المسلمين تبعاً لشذوذكم.

إننا ننصح لكم، أن تثوبوا إلى رشدكم، وتعترفوا بالحق من قريب، قبل أن يظهر للأمة الإسلامية عامة، والمصرية خاصة فساد عقيدتكم، وزهوق باطلكم فيحل بكم الخزي الدنيوي، قبل حلول الخزي الأخروي، نعوذ بالله تعالى من الخذلان والخزي وعواقبهما في الدنيا والآخرة، إنه تعالى سميع قريب مجيب.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
ترجمة العلامة الشيخ عبد الرحمٰن خليفة رحمه الله تعالى	٩
المشبهة والمجسمة	١١
أمثلة مما جاء في كتاب «السنة» المنسوب لعبد الله بن أحمد	١٤
أمثلة مما جاء في كتاب «التوحيد» لابن خزيمة	١٥
كلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية»	١٩
شرح حديث «ينزل ربُّنا تبارك وتعالى»	٢٥
مجسِّمة العصر	٣٢
أغلوطات الحشوية المقصودة المكشوفة	٤٦
كتاب السنة المنسوب لعبد الله بن الإمام أحمد	٥١
صور من كتاب «نقض الدارمي»	٥٣
كتاب «التوحيد» لابن خزيمة	٦٠
تأويل المتشابهات وصرف بعض الظواهر عن معناها أمرٌ لا بد منه	٦٣
لا بد من المعيد إلى التأويل حتماً	٦٤
صورة فتوى لمشيخة الأزهر في عهد الشيخ الجيزاوي عن كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية»	٧١
شرح معنى الاستواء المطابق للبلاغة والتوحيد	٧٩
مغالطات القصيمي في دفاعه عن المجسِّمة	٩٢


المشبهة والمجسمة